اقرأ

أحمد زكي صفوت

عمر بن عبد العزيز

دار المعارف بمصر

عمر بن عبد العزيز

احمد زكي صفوت

عمر بن عبد العزيز

اقرأ ٦٥
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٦٥ — أبريل سنة ١٩٤٨

جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

نسبه

هو ابو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص ابن أمية بن عبد شمس ، وأمه ليلى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .

وإذ كان سليل الفاروق رضي الله عنه من جهة أمه فقد ورث منه كثيراً من شمائله الشماء ، ومناقبه الغراء : من إيثار الحق ومناصرة العدل والعفة والورع والتقوى . . . مما سنفصل القول فيه بعد .

ولا بأس أن نورد لك أيضاً كلمة يسيرة عن جدته لأمه تتبين منها كرم عنصره وشرف محتده. ذكروا أن عمر بن الخطاب خرج ذات ليلة يعس بالمدينة حتى أعيا فاتكأ على جانب جدار ، فإذا امرأة تقول لابنتها : يا بنتاه ، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت لها : يا أماه ، أو ما علمت بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم ؟ فقالت : وما كان من عزمته يا بنية ؟ قالت : إنه أمر منادياً فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء ، فقالت لها : يا بنتاه ، قد مذق الناس فامذقي ، وإنك بموضع لا يراك عمر ، ولا منادي عمر ، وما يدريه ؟ فقالت الصبية : إن كان عمر

لا يعلم فإله عمر يعلم ، والله ما كنت لأطيعه فى الملا ، وأعصيه فى الخلا ! وعمر يسمع كل ذلك ، وكان معه رجل يسمى أسلم ، فقال : يا أسلم ، علّم الباب واعرف الموضع ، ومضى فى عسسه ، فلما أصبح قال : يا أسلم ، امض إلى ذلك الموضع فانظر أمرهما ، فنظر فإذا الجارية أيّم ، وإذا تلك أمها ، وليس لهما رجل ، وهما من بنى هلال ، فأخبر عمر بخبرهما ، فدعا ابنه عاصما فزوجه من الجارية ، فولدت له أم عاصم ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان فأتت بعمر بن عبد العزيز .

وكان يلقب بالأشج ، لأنه ركب وهو صغير دابة من دواب أبيه فسقط عنها فشج فلقب بذلك .

مولده

ولد عمر بن عبد العزيز سنة ٦١ ﻫ وقيل سنة ٦٣ ﻫ وكانت ولادته بالمدينة ، فلما شب وعقل — وهو بعد غلام صغير — كان يأتى عبدالله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه ، ثم يرجع إلى أمه فيقول : يا أمه ، أنا أحب أن أكون مثل خالى — يريد عبدالله بن عمر — فتؤفف به وتقول له : اعزب ، أنت تكون مثل خالك ؟ ! فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان إلى مصر أميراً عليها ، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه بولدها ، فأتت عمها عبدالله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها إليها ، فقال لها : يا بنة أخى هو زوجك فالحقى به ، فلما أرادت الخروج قال لها : خلّفى هذا الغلام عندنا — يريد عمر — فإنه أشبهكم بنا أهل البيت ، فخلفته عنده ولم تخالفه ، فلما قدمت على عبد العزيز أخبرته بخبر عمر ، فسر بذلك وكتب إلى أخيه عبد الملك بن مروان يخبره بأمره ، فكتب عبد الملك أن يجرى عليه ألف دينار فى كل شهر ، ثم قدم عمر على أبيه بعد ذلك مسلماً عليه فأقام عنده ما شاء الله .

هذه إحدى روايتين فى مولد عمر ، والثانية أنه ولد بحلوان – قرية فى مصر – وأبوه أمير عليها ، ثم بعث به إلى المدينة ليتأدب بها .

ونحن إلى ترجيح الرواية الأولى أميل ، لأن عبد العزيز ابن مروان سنة مولد ابنه عمر على كلا القولين لم يكن والياً على مصر ، وإنما كان الوالى على مصر سنة ٦١ هـ هو مسلمة بن مخلد ، والوالى عليها سنة ٦٣ هـ هو سعيد بن يزيد ، أما عبد العزيز ابن مروان فقد ولى إمرة مصر لأبيه مروان بن الحكم فى غرة رجب سنة ٦٥ هـ ، وأقام بها منذئذ حتى وقع بها الطاعون سنة ٧٠ هـ فخرج منها ونزل بحلوان ، فأعجبته فاشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار ، واتخذها سكناً وبنى بها الدور والمساجد ، وعمرها أحسن عمارة وغرس نخلها وكرمها ، وظل على ولاية مصر عشرين سنة حتى مات سنة ٨٥ هـ .

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية ، فإنهما تتلاقيان فى نتيجتهما وهى أن عمر شب وترعرع بالمدينة .

نشأته وثقافته

وقد عنى أبوه بتربيته واستصلاحه منذ نشأته ، فكتب إلى صالح بن كيسان بالمدينة أن يتعاهده ويرعاه ، وكان صالح يلزمه الصلاة ، فأبطأ يوماً عنها ، فقال : ما حبسك ؟ قال : كانت مرجلتى تسكن شعرى ، فقال : بلغ بك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة ! وكتب إلى أبيه بذلك ، فبعث إليه عبد العزيز رسولا فلم يبارحه حتى حلق شعره .

ولا يغيب عن بالك أن المدينة فى ذلك العهد كانت أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، فقد شرفت زمن النبوة بأن كانت مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبها حدّث أكثر حديثه ، وشرّع جل شريعته ، وظلت من بعده مقر الخلافة الإسلامية أيام أبى بكر وعمر وعثمان ، وموطنا لكبار الصحابة وأئمتهم الأعلام ، واشتهر بها كثير من علمائها الأجلاء منهم زيد بن ثابت وكان لا يقدم عليه أحد فى القضاء والفتوى والفرائض (المواريث) والقراءة ، وعبدالله بن عمر بن الخطاب وكان إماماً فى علم الحديث ، وتلقى العلم على هؤلاء العلماء من

الصحابة فى المدينة كثير من علماء التابعين ، من أشهرهم سعيد ابن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام ، من أجل ذلك كان طلبة العلم يقصدون إلى المدينة من شتى البلاد لينهلوا من موارد علومها ، فلا غرو أن يبعث عبد العزيز بابنه عمر إليها ليتأدب بها .

فى هذه البيئة العلمية الزاكية نشأ عمر ، وعلى أساتذتها تثقف ، وقد روى الحديث وتلقى الفقه عن جماعة من الصحابة ، منهم أنس بن مالك المتوفى سنة ٩٠ ﻫ وقد جاوز المائة ، رآه عمر وروى عنه وصلى أنس خلفه ، ومنهم عبدالله بن عمر بن الخطاب المتوفى سنة ٧٤ ﻫ وهو عم أمه كما قدمنا ، وعبدالله بن جعفر بن أبى طالب المتوفى سنة ٨٠ ﻫ ، وعن جماعة من كبار التابعين منهم سعيد بن المسيب المتوفى سنة ٩٤ ﻫ وهو رأس علماء التابعين وفردهم وفقيههم ، وعروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ ﻫ ، وسالم ابن عبدالله بن عمر المتوفى سنة ١٠٦ ﻫ وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود المتوفى سنة ٩٩ ﻫ وكان عمر بن عبد العزيز يقول : « ما رويت عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة أكثر مما رويت عن جميع الناس » ويقول أيضاً : « لأن يكون لى مجلس من عبيدالله أحب إلى من الدنيا وما فيها » ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٥ ﻫ ، وقد كتب عمر بعد إلى

الآفاق : « عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه » .

على هؤلاء العلماء الجهابذة وعلى غيرهم من علماء المدينة تخرج عمر فى علوم الدين حتى حذقها وصار فيها إماماً ضليعاً مبرزاً ، وحتى يقول فيه ميمون بن مهران المتوفى سنة ١١٧ هـ : « ما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلاميذ » ويقول : « عمر بن عبد العزيز معلم العلماء » وستلمس أثر تلك الثقافة الفياضة جلياً فيما نورده لك بعد فى مناظرته للخوارج والقدرية .

وكذلك كانت المدينة فى تلك الحقبة تزخر بالحياة الأدبية من قرض الشعر ورواية أشعار العرب وأخبارهم وأيامهم ، فأخذ عمر بحظه من الثقافة الأدبية وملأ منها سجله ، وقد حدث عن نفسه فقال : « لقد رأيتنى وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان ثم تاقت نفسى إلى العلم بالعربية والشعر فأصبت منه حاجتى » وسترى أثر تلك الثقافة أيضاً فيما نورده لك بعد من حديثنا عنه مع الشعراء ، وأنت عليم أنه ابن الخلائف من قريش أفصح العرب وأرقها لهجة ، وأن اللسان العربى كان لا يزال إلى عصره قويماً سليما لم تشبه عجمة ، ولم تشنه هجنة ، اللهم إلا قليلا جداً من اللحن لم يعد دائرة ضيقة محدودة ، ولئن أخذ على بعض الأمويين وقوع اللحن فى قولهم ، كالوليد ومحمد ابنى عبد الملك ، وبشر

وعبد العزيز ابنى مروان ، وعبدالله بن يزيد بن معاوية ، إن عمر بن عبد العزيز لم يتعلق عليه أحد بلحن فى قول ، ومن فكه ما يروى فى هذا الصدد أن بشر بن مروان قال يوماً لغلام له وكان عنده عمر بن عبد العزيز : ادع لى صالحاً ، فقال الغلام : يا صالحاً ، فقال له بشر ، ألق منها ألف ، فقال له عمر : وأنت فزد فى ألفك ألفا .

ترفه قبل استخلافه

ولئن كان عمر قد استوفى حظه من الحياة الثقافية ، العلمية والأدبية ، فى المدينة ، إنه لم ينس نصيبه فى عنفوان شبابه من حياة الترف وترف الحياة ، فى حدود الاستمتاع الحلال المشروع ، حتى إذا ما حمل أعباء الخلافة نفض يده من الدنيا جملة ، وطلقها بائنة لا رجعة فيها .

وليس بغريب على مثل عمر أن يعيش عيش المترفين المرفهين ، فقد درج من بيت الخلافة ، ورتع فى بحبوحة الملك ، وتفيأ ظلال الإمارة ، وربى فى حجر النعيم ، كان جده مروان بن الحكم خليفة ، وكان عمه عبد الملك بن مروان خليفة ، وكان أبوه عبد العزيز بن مروان على مصر أميراً ، وقد أسلفنا لك أن عمه عبد الملك أجرى عليه وهو صغير بالمدينة ألف دينار كل شهر .

وهاك طرفاً مما سطرته كتب التاريخ فى هذا الصدد :

ذكروا أن عمر كان أعظم أموى ترفها ، غذى بالملك ونشأ فيه ، لا يعرف إلا وهو تعصف ريحه ، فتوجد رائحته فى المكان الذى يمر فيه ، ويمشى مشية تسمى العمرية ، فكان الجوارى

يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها ، وأنه ترك كل شيء كان فيه لما استخلف غير مشيته ، فإنه لم يستطع تركها ، فربما قال لمزاحم : ذكّرنى إذا رأيتنى أمشى فيذكره ، فيخلطها ، ثم لا يستطيع إلا إياها فيرجع إليها ، وكان يطبع بخاتمه فيعلق العنبر بالطينة ، فلم يزل على ذلك حتى ولى الخلافة فزهد فى الدنيا ورفضها

وحدث رجل قال : رأيته فى المدينة وهو أحسن الناس لباساً ، ومن أطيب الناس ريحاً ، ومن أخيل الناس فى مشيته ، ثم رأيته بعد ذلك يمشى مشية الرهبان .

وأتاه رجل أيام خلافته فأمره أن يشترى له كساء بثمانية دراهم! فاشتراه له وأتاه به فأعجبه ووضع يده عليه وقال : ما ألينه ، فضحك الرجل ، فقال له عمر : إنى لأحسبك أحمق ، أتضحك من غير شيء ! قال : ما ذاك بى ، ولكنك أمرتنى قبل ولايتك أن أشترى لك مطرف خز ، فاشتريت لك مطرفاً بثمانمائة درهم ، فوضعت يدك عليه فقلت : ما أخشنه ، وأنت اليوم تستلين كساء بثمانية دراهم ، فعجبت من ذلك وأضحكنى .

وحدث شيخ من قريش قال : كان عمر بن عبد العزيز يقول قبل الخلافة : لقد خفت أن يعجز ما قسم الله لى عن كسوتى ، وما لبست ثوباً قط فرآه الناس على إلا خيل لى أنه قد بلى ، فلما ولى خرج من ذلك كله .

وقال آخر : كان عمر يذيل ثيابه ويسرف فى عطره ، فلقد كان يدخل فى طيبه حمل القرنفل ، ولقد رأيت العنبر على لحيته كالملح ، فلما أفضت إليه الخلافة ترك ذلك وتبذل .

وحدث شيخ كان فى حرس عمر قال : رأيته حين ولى فإذا به من حسن اللون وجودة الثياب والبزة ، ثم دخلت عليه بعد وقد ولى فإذا هو قد احترق واسود ولصق جلده بعظمه حتى ليس بين الجلد والعظم لحم .

وذكروا أنه ولى المدينة ، فسار أحسن سيرة ، وكان مع ذلك يعصف ريحه ، ويرخى شعره ، ويسبل إزاره ، ويتبختر فى مشيته ، وهو مع ذلك لا يغمص عليه فى بطن ولا فرج ولا حكم .

ورووا أنه لما ولى الخلافة زهد فى الدنيا ، ورفض ما كان فيه ، وترك أن يخدم ، وترك ألوان الطعام ، فكان إذا صنع له طعامه هيّئ على شيء وغطى حتى إذا دخل اجتبذه فأكل .

كل هذا يصور لك بجلاء أنه لم ينس نصيبه من الدنيا فى شرخ صباه ، فلما أن ولى الخلافة خرج من جميع ما كان فيه من النعيم فى الملبس والمأكل والمتاع .

عمر والغناء

قال أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى :

« أول من دونت له صنعة من الخلفاء عمر بن عبد العزيز ، فإنه ذكر عنه أنه صنع فى أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها كلها ، فبعضها عرفت الشاعر القائل له فذكرت خبره ، وبعضها لم أعرف قائله فأتيت به كما وقع إلىّ . . .

ومن الناس من ينكر أن تكون لعمر بن عبد العزيز هذه الصنعة ، ويقول إنها أصوات محكمة العمل ، لا يقدر على مثلها إلا من طالت دربته بالصنعة ، وحذق الغناء ، ومهر فيه ، وتمكن منه ، ولم يوجد عمر بن عبد العزيز فى وقت من الأوقات ، ولا حال من الحالات ، اشتهر بالغناء ، ولا عرف به ، ولا بمعاشرة أهله ، ولا جالس من ينقل ذلك عنه ويؤديه ، وإنما هو شىء يحسن المغنون نسبته إليه .

وروى من غير وجه خلاف لذلك ، وإثبات لصنعته إياها ، وهو أصح القولين ، لأن الذين أنكروا ذلك لم يأتوا على إنكارهم بحجة أكثر من هذا الظن والدعوى ، ومخالفوهم قد أيدتهم أخبار رويت » .

وقال :

عن كردم بن معبد قال : طرح على عمر بن عبد العزيز لحنه :

علق القلب سعادا عادت القلب فعادا
كلما عوتب فيها أو نهى عنها تمادى
وهو مشغوف بسعدى قد عصى فيها وزادا

قال كردم : وكان عمر أحسن خلق الله صوتاً ، وكان حسن القراءة للقرآن .

وعن محمد بن الحسين قال : قلت لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، صوت يزعم الناس أنك صنعته فى شعر جرير :

ألما صاحبى نزر سعادا لو شك فراقها وذرا البعادا
لعمرك إن نفع سعاد عنى لمصروف ، ونفعى عن سعادا
إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى ومروان الذى رفع العمادا

فتبسم عمر ولم يرد على شيئاً .

قال أبو الفرج : والشعر لجرير يمدح عمر بن عبد العزيز بن مروان ، والغناء لعمر بن عبد العزيز .

وقال :

ومن أصوات عمر فى سعاد .

ألا يا دين قلبك من سليمى　　كما قد دين قلبك من سعادا
هما سبتا الفــؤاد وأصبتاه　　ولم يدرك بذلك ما أرادا
قفا نعرف منازل من سليمى　　دوارس بين حومل أو عرادا
ذكرت بها الشباب وآل ليلى　　فلم يرد الشباب بها مرادا
فإن تشب الذؤابة أم زيد　　فقد لاقيت أياما شدادا

وقال :

لعمر بن عبد العزيز فى سعاد سبعة ألحان :

منها :

يا سعاد التى سبتنى فؤادى　　ورقادى ، هبى لعينى رقادى

ومنها :

حظ عينى من سعاد　　أبداً طول السهاد

ومنها :

سبحان ربى برا سعادا　　لا تعرف الوصل والودادا

ومنها :

لعمرى لئن كانت سعاد هى المنى
وجنــة خــلد لا يمل خلودها

ومنها :

أسعاد جودى (لا شقيت) سعادا
واجزى محبــك رأفة ووددادا

ومنها :

ألما صاحبى نزر سعادا لو شك فراقها وذرا البعادا

ومنها :

ألا يا دين قلبك من سليمى كما قد دين قلبك من سعادا

هذا ما أورده صاحب الأغانى فى ذلك الصدد، ونحن نذهب فيه مذهبه ، ونوافقه فيما رجحه ، ولسنا ممن ينكر أنه كان لعمر ابن عبد العزيز — فى ميعة شبابه ، وقبل أن يتقلد الخلافة — هوى فى الغناء ، وصبوة إليه ، فإن أحداً لا يمارى فى أن الغناء فن جميل ، يتعشقه كل إنسان بفطرته ، وتهيم به كل نفس بطبيعتها ، يتوق إليه الملك فى قصره ، ويشتاقه الصعلوك فى كوخه ، وهو غذاء الأرواح ، وسلسبيل القلوب ، وصقال النفوس ، وروضة الأذهان ، وهو بعد متعة مشروعة ، لا يأباها الدين ، ولا تنكرها الشريعة ، ما دام لا يكتنفه رفث ولا فسوق ولا شراب ، دع عنك ما يتشدق به المتزمتون من أن الدين يحظره ، وأن الشرع لا يبيحه ، وحسبنا فى تفنيد زعمهم ما ورد فى الحديث الشريف ؛ « عن عائشة رضى الله عنها أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار ، فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة، ما كان معكم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو » وفى رواية : « فهلا بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغنى »

وقال صاحب العقد الفريد: « واحتجوا فى إباحة الغناء واستحسانه بقول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة : أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ قالت : نعم ، قال : فبعثتم معها من يغنى ؟ قالت : لا ، قال : أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ؟ ألا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم

واحتجوا بحديث عبدالله بن أويس ابن عم مالك ، وكان من أفضل رجال الزهرى ، قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم بجارية فى ظل فارع وهى تغنى :

هل على ويحكم إن لهوت من حرج ؟

فقال النبى : لا حرج إن شاء الله »

فلا حرج إذن على عمر أن يهوى الغناء ويصبو إليه ، ولا يغتمز ذلك فيه ، ولا ينقص من دينه وفضله .

وليس ببدع أن يهفو عمر إلى الغناء ، ويشرب فؤاده حبه ، وهو قد نشأ فى بيئة غنائية ، فياضة بالألحان والإيقاع ، مفعمة بحذاق المغنين والمغنيات ، وهذا قول مجمل نفصله لك بعض التفصيل .

خلصت الخلافة لمعاوية بعد ما شجر بينه وبين على من

خصام ، وما نشب من قتال ، فلم ينم عن توطيد عرشه ، وكان ذا حنكة سياسية فائقة ، وبصر بأعقاب الأمور ثاقب ، وكان بالمدينة على عهده طائفة من الشباب المترف من أبناء المهاجرين والأنصار يخشى أن تشرئب أعناقهم إلى الخلافة ، ويسول لهم حب الملك أن يكيدوا له ، فقصرهم على سكنى الحجاز ، وحظر عليهم أن يغادروه إلا بإذنه ، ورأى من الحزم أن يقيدهم بالإحسان ، ويفيض عليهم جزيل العطاء ، ففرض لهم رواتب ضخمة فى بيت المال كانت تتدفق عليهم من خزائن الشام ، هذا إلى ما ورثوه من آبائهم الفاتحين من ثراء وافر ، ثم هم بعد فارغون من العمل متعطلون ، فصدق فيهم قول أبى العتاهية :

إن الشباب والفراغ والجده   مفسدة للمرء أى مفسده

نشأ هؤلاء الشباب يتقلبون فى أعطاف النعمة والبطالة ، فجنحوا إلى الاستمتاع بلذائذ الحياة ومتعها ، وطفقوا ينفقون الأموال فى الترف واللهو والقصف والغناء ، ولهوا بذلك عن طلب الملك والإمارة ، وكانت مواد النعيم لديهم موفورة ، فقد كان من نصيبهم — وهم العنصر الفاتح — خير الجوارى من السبايا وأرفعهن نسباً ، ومنهن من تربى فى بيوت الملوك والأمراء ، فكثر التسرى بالجميلات من الروميات والفارسيات ، وكان

كثرة الموالى فى الحجاز رجالا ونساء من أهم العوامل فى نمو فن الغناء وتقدمه .

وقد سبقت المدينة سائر المدائن الإسلامية إلى الغناء ، وشاع اللهو والقصف بين أهلها ، فإن سائب خاثر — وهو مولى بنى ليث ، وأصله من فىء كسرى ، واشتراه عبدالله بن جعفر الهاشمى — هو أول من عمل العود بالمدينة وغنى به ، واشترى عبدالله بن عامر إماء وأتى بهن المدينة ، فكان لهن يوم فى الجمعة يغنين فيه ، وسمع الناس منهن فأخذوا عنهن ، ثم قدم رجل فارسى يسمى نشيطاً فغنى فأعجب عبدالله بن جعفر به ، فقال له سائب خاثر : أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسى بالعربية ، ثم غدا على عبدالله بن جعفر وقد صنع :

لمن الديار رسومها قفر لعبت بها الأرواح والقطر

وهو أول صوت غنى به فى الإسلام من الغناء العربى المتقن الصنعة ، ثم اشترى عبدالله بن جعفر نشيطاً بعد ذلك ، فأخذ عن سائب خاثر الغناء العربى ، وأخذ عنه ابن سريج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم .

ثم شاع الغناء وذاع ، ونبغ فيه كثير من المغنين والمغنيات ، وغصت بهم المدينة ومكة ، روى صاحب الأغانى قال : « حجت جميلة فخرج معها من المغنين مشيعين ، حتى وافوا مكة ورجعوا

معها ، من الرجال المشهورين الحذاق بالغناء : هيت وطويس والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحى وقند ورحمة وهبةالله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير ، ومن النساء المغنيات الفارهة : عزة الميلاء وحبابة وسلامة وخليدة وعتيلة والشماسية وفرعة وبلبلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء . . . ولما قاربوا مكة تلقاهم سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز وجماعة من المغنين من أهل مكة وقيان كثيرة . . . وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم ، فلما قضت حجها وقدمت المدينة تلقاها أهلها فدخلت أحسن مما خرجت به منها . . . » .

وكانت جمهرة المغنين فى الحجاز أكثر منها فى العراق ، جاء فى ترجمة حنين الحيرى فى الأغانى : « كان فحلا من فحول المغنين ، وله صنعة فاضلة متقدمة ، وكان يسكن الحيرة ، ثم قال : ولم يكن بالحيرة مذكور فى الغناء سوى حنين إلا نفر من السديريين يقال لهم عباديس وزيد بن الطيس وزيد بن كعب ومالك بن حممة . . . »

وروى أيضاً صاحب الأغانى قال : « كان المغنون فى عصر حنين الحيرى أربعة نفر : ثلاثة بالحجاز وهم ابن سريج والغريض ومعبد ، وهو وحده بالعراق ، فكان يبلغهم أن حنيناً قد غنى

فى هذا الشعر : « هلا بكيت على الشباب الذاهب » فاجتمعوا فتذاكروا أمره وقالوا : ما فى الدنيا أهل صناعة شرمنا ، لنا أخ بالعراق ونحن بالحجاز لا نزوره ولا نستزيره ! فكتبوا إليه ووجهوا له نفقة ، وكتبوا يقولون : نحن ثلاثة وأنت وحدك ، فأنت أولى بزيارتنا ، فشخص إليهم ، فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره فخرجوا يتلقونه ، فلم ير يوم كان أكثر حشداً ولا جمعاً من يومئذ ، ودخلوا فلما صاروا فى بعض الطريق ، قال لهم معبد : صيروا إلى ، فقال له ابن سريج : إن كان لك من الشرف والمروءة مثل ما لمولاتى سكينة بنت الحسين عطفنا إليك ، فقال : مالى من ذلك شيء ، وعدلوا إلى منزل سكينة ، وأذنت للناس إذنا عاماً ، فغصت الدار بهم ، وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة ، فأكلوا منها ، ثم سألوا حنينا أن يغنيهم صوته الذى أوله : « هلا بكيت على الشباب الذاهب » فغناهم إياه بعد أن قال لهم : ابدءوا أنتم ، فقالوا : ما كنا لنتقدمك ولا نغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت ، فغناهم إياه وكان من أحسن الناس صوتاً ، فازدحم الناس على السطح ، وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على من تحته ، فسلموا جميعاً وأخرجوا أصحاء ، ومات حنين تحت الهدم ، فقالت سكينة عليها السلام : لقد كدر علينا حنين سرورنا ، انتظرناه مدة طويلة

كأنا والله كنا نسوقه إلى منيته » .

هذه شذرة تصور لك الحياة الغنائية بالمدينة فى ذلك العهد ، وتريك أن حياة المرح واللهو والطرب كانت تساير فيها حياة الفقه والحديث والورع والتقوى جنباً لجنب ، وأن أشرافها ما كانوا ليتحرجوا من سماع الأغانى أو يعيبوه ، وكيف وهذه السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنه — وهى من تعلم ، فى شريف نسبها ، وسامى شرفها — يقام فى دارها هذا الحفل الغنائى ، وتأذن للناس فى حضوره إذنا عاماً ، وتقدم لهم فيه الأطعمة ، ويتزاحمون ويتدافعون حتى يسقط بهم الرواق على من تحته !

وأكثر من ذلك أن بعض كبار الأئمة فى المدينة كان له مشاركة حسنة فى هذا الفن الجميل ، وهاك استمع لصاحب الأغانى يحدثك عن الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكى — وقد أدرك أواخر حياة عمر ، ولد سنة ٩٥ ﻫ وتوفى سنة سنة ١٧٩ ﻫ — قال حسين بن دحمان الأشقر : كنت بالمدينة فخلا لى الطريق وسط النهار فجعلت أتغنى بصوت ، فإذا خوخة قد فتحت وإذا وجه قد بدا تتبعه لحية حمراء ، فقال : أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، ثم اندفع يغنيه فظننت أن طويسا قد نشر بعينه ، فقلت له : أصلحك الله ، من أين لك هذا الغناء ؟ قال : نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وآخذ عنهم ، فقالت

لى أمى : يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه ، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بى عز وجل ما ترى ، فقلت له : فأعد جعلت فداءك ، قال : لا ولا كرامة ، أتريد أن تقول : أخذته عن مالك بن أنس ؟ وإذا هو مالك بن أنس ولم أعلم !

وملاك القول أن عمر بن عبد العزيز نشأ فى ظلال هذه الأيكة الفينانة ، وسمع بلابلها المغردة ، وأطيارها المرنة ، ووهب الله له حنجرة موسيقية ، فشدا ولحن ، وتغنى وترنم !

ولايته على المدينة

وفى ربيع الأول سنة ٨٧ ﻫ ولاه الوليد بن عبد الملك المدينة ، فقدمها ونزل دار جده مروان بن الحكم ، ودخل عليه الناس فسلموا ، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة : عروة ابن الزبير وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، وأبا بكر بن عبد الرحمن ، وأبا بكر بن سليمان ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عبدالله بن عمر ، وعبدالله ابن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، فدخلوا عليه فجلسوا ، فحمدالله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً على الحق ، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم ، أو برأى من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى ، أو بلغكم عن عامل لى لى ظلامة ، فأحرّج بالله على من بلغه ذلك إلا بلغنى »

فخرجوا يجزونه خيرا وافترقوا .

فأنت تقرأ فى هذه الكلمة الوجيزة الدستور الذى سنه لحكمه ، والنهج القويم الذى رام أن ينتهجه فى ولايته ، وترى كيف اتخذ

من هؤلاء الأئمة الأعلام أعواناً له على الحق ، يجعل أمره شورى بينهم ، ولا ينفذ حكما إلا باطلاعهم ، ثم ترى كيف ينشدهم الله أن لا يزووا عنه خبر شكاية أوظلامة ، من أحد من عماله ، أو من عامة الناس ، فلا غرو أن يسطر المؤرخون فى صحيفة تاريخه : « ولى عمر المدينة فسار أحسن سيرة » .

وولى عمر على قضاء المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وعرف للعلماء حقهم وفضلهم ، فأولاهم ما هم أهله من الإكبار والإجلال . ذكروا أنه أرسل إبان ولايته على المدينة رسولا إلى سعيد بن المسيب — وهو من قدمنا لك فضله — يسأله عن مسألة ، وكان سعيد لا يأتى أميراً ولا خليفة ، فأخطأ الرسول فقال له : الأمير يدعوك ، فقصد إليه ، فلما رآه عمر قال له : عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا ، فإنا لم نرسله ليدعوك ، وإنما أرسلناه ليسألك ، ولكنه أخطأ » .

وبإزاء ما تراه فى هذا الخبر من عظيم احترامه وتقديره للعلماء ، تلمح من خلال ما ورد فيه من « أن سعيداً كان لا يأتى أميراً ولا خليفة » كيف كان ذلك العالم العيلم يحرص على الاحتفاظ بكرامته ، والاعتزاز بمقامه الجليل .

ومن أخباره أيام ولايته على المدينة أن الوليد بعث إليه سنة ٨٨ ه

بكتاب يأمره بإدخال حجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد رسول الله ، وأن يشترى ما فى مؤخره ونواحيه حتى يكون مائتى ذراع فى مائتى ذراع ، ويقول له : قدّم القبلة إن قدرت — وأنت تقدر — لمكان أخوالك ، فإنهم لا يخالفونك ، فمن أبى منهم فمر أهل المصر فليقوموا له قيمة عدل ، ثم اهدم عليهم وادفع إليهم الأثمان ، فإن لك فى ذلك سلف صدق ، عمر وعثمان ، فأقرأهم كتاب الوليد ، فأجاب القوم إلى الثمن فأعطاهم إياه ، وأخذ فى هدم بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبناء المسجد ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى قدم الفعلة ، بعث بهم الوليد .

وفى هذه السنة أيضاً كتب الوليد إلى عمر فى تسهيل الثنايا وحفر الآبار بالمدينة ، وكتب إلى خالد بن عبدالله القسرى بذلك — وكان على مكة —

وفيها كتب إلى عمر أن يعمل الفوّارة التى عند دار يزيد بن عبد الملك ، فعملها عمر وأجرى ماءها ، فلما حج الوليد وقف عليها فنظر إلى بيت الماء والفوّارة فأعجبته وأمر لها بقوّام يقومون عليها ، وأن يسقى أهل المسجد منها ، ففعل ذلك .

وفى هذه السنة حج عمر بن عبد العزيز بالناس ، قال صالح ابن كيسان : خرج عمر بعدة من قريش أرسل إليهم بصلات

ودواب للحمولة ، وأحرموا معه من ذى الحليفة وساق معه بدنا ، فلما كان بالتنعيم لقيهم نفر من قريش فأخبروه أن مكة قليلة الماء ، وأنهم يخافون على الحاج العطش ، وذلك أن المطر قل ، فقال عمر : فالمطلب ها هنا بين ، تعالوا ندع الله ، فدعوا ودعا معهم فألحوا فى الدعاء ، قال صالح : فلا والله ، ما وصلنا إلى البيت ذلك اليوم إلا مع المطر حتى كان مع الليل ، وسكبت السماء وجاء سيل الوادى ، فجاء أمر خافه أهل مكة ، ومطرت عرفة ومنى وجمع ، قال : ونبتت مكة تلك السنة للخصب .

وظل عمر على ولاية المدينة حتى كانت سنة ٩١ هـ فضمت إليه ولاية مكة ، ثم عزله الوليد سنة ٩٣ هـ ، وكان سبب ذلك أن عمر كتب إلى الوليد يخبره بعسف الحجاج أهل عمله بالعراق ، واعتدائه عليهم ، وظلمه لهم بغير حق ولا جناية ، وبلغ ذلك الحجاج فاضطغنه على عمر وكتب إلى الوليد :

« إن من قبلى من مراق أهل العراق ، أهل الشقاق ، قد جلوا عن العراق ، ولجئوا إلى المدينة ومكة ، وإن ذلك وهن » .

فكتب الوليد إلى الحجاج أن أشر على برجلين ، فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حيان وخالد بن عبدالله ، فولى خالدا

مكة ، وعثمان المدينة ، وعزل عمر بن عبد العزيز ، فخرج من المدينة فأقام بالسويداء .

يصور لك هذا الخبر بجلاء كيف كان الوليد يصانع الحجاج ، وإلى أى حد كان ينزل على إرادته ، ويخضع لأمره ، فلا عجب أن يقول : « إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : إن الحجاج جلدة ما بين عينى ، وأنا أقول : إنه جلدة وجهى كله » ولقد حفظ وصية أبيه فيه ، إذ قال له ولإخوته فيما قال عند وفاته : « وأكرموا الحجاج ، فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر » .

وقبل أن يغادر ركب عمر المدينة نرى أن نقف بالقارئ هنيهة نحدثه فيها عن حال الشعراء معه إبان إمارته فنقول :

عمر والشعراء أيام إمارته

كان المدح والهجاء أبرز الفنون الشعرية فى العصر الأموى ، وأكثرها تناولا وذيوعاً ، فكان الشعراء يؤمون بمدحهم البليغة ساحة الخلفاء والأمراء والكبراء ، فيجزل هؤلاء لهم العطاء ، ويفيضون عليهم المنح ، كما ذكت بينهم نار الهجاء ، واستطار شره ، وجروا فى مضماره أشواطاً بعيدة المدى ، وكان الفرسان المبرزون فى هذين الميدانين جريراً والفرزدق والأخطل ، ونجتزئ فى هذا الباب بما يتصل بموضوعنا منه .

* * *

ذكروا أن الفرزدق قدم المدينة فى سنة مجدبة ، فمشى أهلها إلى عمر بن عبد العزيز فقالوا له : أيها الأمير ، إن الفرزدق قدم مدينتنا فى هذه السنة الجدبة التى قد أهلكت عامة أموالنا ، وليس عند أحد منا ما يعطيه شاعراً ، فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه ، وتقدم إليه ألا يعرض لأحد بمدح ولا هجاء ، فبعث إليه عمر : إنك يا فرزدق قدمت مدينتنا فى هذه السنة الجدبة ، وليس عند أحد ما يعطيه شاعراً ، وقد أمرت لك

بأربعة آلاف درهم ، فخذها ولا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء ، فأخذها الفرزدق ، ومر بعبد الله بن عمرو بن عثمان ، وهو جالس في سقيفة داره ، عليه مطرف خز أحمر ، وجبة خز أحمر ، فوقف عليه ، ومدحه بأبيات من شعره ، فخلع عليه الجبة والعمامة والمطرف ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج رجل — كان حضر عبدالله، والفرزدق عنده ، ورأى ما أعطاه إياه ، وسمع ما أمره عمر به من ألا يعرض لأحد — فدخل إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره ، فبعث إليه عمر: ألم أتقدم إليك يا فرزدق ألا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء ؟ اخرج فقد أجلتك ثلاثا ، فإن وجدتك بعد ثلاث نكلت بك ، فخرج وهو يقول :

فأجلنى وواعدنى ثلاثاً كما وعدت لمهلكها ثمود

فقال جرير فيه :

نفاك الأغر ابن عبد العزيز ومثلك ينفى من المسجد
وشبهت نفسك أشقى ثمود فقالوا ضللت ولم تهتد

وقدم المدينة جرير أيضاً ومدح عمر بن عبد العزيز بقصيدة بليغة منها :

ألما صاحبى نزر سعادا لوشك فراقها وذرا البعادا
لعمرك إن نفع سعاد عنى لمصروف ونفعى عن سعادا

إليك رحلت يا عمر بن ليلى على ثقة أزورك واعتمادا
تعود صالح الأعمال إنى رأيت المرء يلزم ما استعادا
إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى ومروان الذى رفع العمادا
تزود مثل زاد أبيك فينـا فنعم الزاد زاد أبيك زادا
فما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا
هنيئاً للمدينـة إذ أهلت بأهـل الملك أبدأ ثم عادا
يعود الحلم منك على قريش وتفرج عنهم الكرب الشدادا
وقـد لينت وحشهم برفق ويعيي الناس وحشك أن يصادا
وتبنى المجد يا عمر بن ليلى وتكفى الممحل السنة الجمادا
وأنت ابن الخضارم من قريش هم نصروا النبوة والجهادا
وقادوا المؤمنين ولم تعـود غداة الروع خيلهم القيادا

واستعرت نار الهجاء بين جرير وبين كثير من شعراء عصره ، ورشقهم بسهام القدح ورشقوه ، وكان ممن هاجاهم عمر بن لجأ التيمى ، والحديث فى ذلك طويل ، ولا يهمنا هنا إلا أن نقول : إن عمر بن عبد العزيز لم يمنعه مدح جرير إياه من أن ينزل به العقاب هو وابن لجأ لما تبادلا قصائد الهجو والسباب .

روى صاحب الأغانى قال :

حدث إبرهيم بن عبدالله قال : حضرت عمر بن لجأ التيمى وجريرا موقوفين للناس بسوق المدينة ، لما تهاجيا وتقاذفا ، وقد

أمر بهما عمر بن عبد العزيز ، فقرنا وأقيما ، وعمر بن لجأ شاب كأنه حصان ، وجرير شيخ قد أسن وضعف ، فيقول ابن لجأ :

رأوا قمرا بساحتهم منيراً وكيف يقارن القمر الحمارا

ثم ينزو به وهما مقرونان فى حبل فيسقطان إلى الأرض ، فأما ابن لجأ فيقع قائماً . وأما جرير فيخر لركبتيه ووجهه ، فإذا قام نفض الغبار عنه ، فقال رجل من جلساء عمر له حين حضر غداؤه : لو دعا الأمير بأسيريه فغداهما معه ، ففعل ذلك عمر.

وكان جرير قد قال فى ابن لجأ قصيدته التى يقول فيها :

يا تيم تيم عدىّ لا أبا لكم لا يوقعنكم فى سوءة عمر

وحج أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان ، فقدم المدينة ، فدخل عليه الأحوص — أحد شعراء المدينة — وسأله أن يستصحبه معه إلى الشأم ، فوعده بذلك ، فلما خرج الأحوص قال له بعض من عنده : ما ذا تريد بنفسك ، تقدم بالأحوص الشأم وبها من ينافسك من بنى أبيك — وهو من الأفن والسفه على ما قد علمت — فيعيبونك به ! ؟ فلما رجع أبو بكر من الحج دخل عليه الأحوص متنجزا لما وعده ، فقال له : كرهت أن أهجم بك على أمير المؤمنين (الوليد بن عبد الملك) من غير إذنه فيجبهك ، فيشمت بك عدوى من أهل بيتى ، ولكن خذ هذه الثياب والدنانير ، وأنا مستأذن لك أمير المؤمنين فإذا أذن لك

كتبت إليك فقدمت عليّ ، فقال له الأحوص : لا ، ولكن قد سبقت عندك ، ولا حاجة لى بعطيتك، ثم خرج من عنده .

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز — وهو يومئذ أمير المدينة — فأرسل إلى الأحوص ، فلما دخل عليه أعطاه مائة دينار وكساه ثياباً فأخذ ذلك ، ثم قال له : يا أخى هب لى عرض أبى بكر ، قال: هو لك، وقد قال قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز ، وهى:

يا بيت عاتكة الذى أتعزل ... حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدود وإننى ... قسما إليك مع الصدود لأميل
فصددت عنك وما صددت لبغضة ... أخشى مقالة كاشح لا يعقل
هل عيشنا بك فى زمانك راجع ... فلقد تفاحش بعدك المتعلل
إن الشباب وعيشنا اللذّ الذى ... كنا به زمنا نسر ونجذل
ولت بشاشته وأصبح ذكره ... حزنا يعل به الفؤاد وينهل
إلا تذكر ما مضى وصبابة ... منيت لقلب متيم لا يذهل
أودى الشباب وأخلقت لذاته ... وأنا الحزين على الشباب المعول
يبكى لما قلب الزمان جديده ... خلقاً وليس على الزمان معول
والرأس شامله البياض كأنه ... بعد السواد به الثغام المحول
وسفيهة هبت على بسحرة ... جهلا تلوم على الثواء وتعذل
فأجبتها أن قلت لست مطاعة ... فذرى تنصحك الذى لا يقبل

إنى كفانى أن أعالج رحلة « عمر » ونبوة من يضن ويبخل
بنوال ذى فجر تكون سجاله عصراً إذا نزل الزمان الممحل
ماض على حدث الأمور كأنه ذو رونق عضب جلاه الصيقل
تبدى الرجال (إذا بدا) إعظامه حذر البغاث هوى بهن الأجدل
فيرون أن له عليهم سورة وفضيلة سبقت له لا تجهل
متحمل ثقل الأمور ، حوى له سبق المكارم سابق متمهل
وله (إذا نسبت قريش) فيهمو مجد الأرومة والفعال الأفضل
وله بمكة إذ أمية أهلهـــا إرث إذا عد القديم مؤثل
أعيت قرابته ، وكان لزومه أمراً أبان رشاده من يعقل
وسموت عن أخلاقهم. فتركتهم لنداك ، إن الحازم المتحول
ولقد بدأت أريد ود معاشر وعدوا مواعد أخلفت إذ حصلوا
حتى إذا رجع اليقين مطامعى يأساً ، وأخلفنى الذين أؤمل
زايلت ما صنعوا إليك برحلة عجلى ، وعندك عنهمو متحول
ووعدتنى فى حاجتى فصدقتنى ووفيت إذ كذبوا الحديث وبدلوا
وشكوت غرماً فادحاً فحملته عنى ، وأنت لمثله متحمل
فلأشكرن لك الذى أوليتنى شكراً تحل له المطى وترحل
مدحاً تكون لكم غرائب شعرها مبذولة ، ولغيركم لا تبذل
وإذا تنخلت القريض فإنه لكم يكون خيار ما أتنخل
ولعمر من حج الحجيج لبيته تهوى بهم قلص المطى المرمل

إن امرأ قد نال منك وسيلة   يبغى منافع غيرها لمضلل
تعفو إذا جهلوا بحلمك عنهمو   وتنيل إن طلبوا النوال فتجزل
وتكون معقلهم إذا لم ينجهم   من شر ما يخشون إلا المعقل
حتى كأنك يتقى بك دونهم   من أسد بيشة خادر متبسل
وأراك تفعل ما تقول وبعضهم   مذق الحديث يقول مالا يفعل
وأرى المدينة حين صرت أميرها   أمن البرىء بها ونام الأعزل

فقال عمر : ما أراك أعفيتنى مما استعفيت منه — لأنه مدح عمر وعرض بأخيه —

وأظهر ما يستنبط من هذه القصة أن العظماء والرؤساء فى ذلك العهد كانوا يتحامون جانب الشعراء ويتحاشون لسانهم ، فقد رأيت عمر يمنح الأحوص منحته ، ويسأله أن يهب له عرض أخيه ، ويمسك عن القدح فيه ، لما أخلف من وعده إياه ، فيأبى الأحوص إلا أن يمزج مدحته لعمر بالتعريض بأبى بكر ، فلا يسع عمر إلا أن يقول له : ما أراك أعفيتنى مما استعفيت منه ! وسنذكر لك بعد بقية أخباره معه إبان خلافته

وكان بجانب ميدانى المدح والهجاء فى هذا العصر ميدان ثالث فسيح ، وهو ميدان الغزل والتشبيب ، وفارس حلبته عمر ابن أبى ربيعة ، وكان موطنه المدينة ، وقد وصفنا لك آنفاً حياة المرح والغناء التى كانت تموج بها إذ ذاك ، ولقد كان لتلك

الحياة أثرها فى ازدياد الغزل والتشبيب بالنساء ، فكثر بالمدينة وبمكة الشعراء الغزلون، وصوروا فى شعرهم عواطفهم وأهواءهم ، وبثوا ما اختلج فى نفوسهم من لواعج الصبابة والهيام ، وقصوا أنباء زياراتهم لحبيباتهم ، وما وقع لهم معهن من حادثات ، وما دار بينهم وبينهن من أحاديث ، فى شعر رقيق أنيق يشجى الصب ، ويأخذ بلب الولهان ، وكان زعيمهم ومقدمهم فى ذلك عمر بن أبى ربيعة ، وقد أكثر فى شعره من الرفث والفجور حتى قيل فيه : « ما عصى الله بشىء كما عصى بشعر عمر بن أبى ربيعة » وقيل فيه : « ما دخل على العواتق فى حجالهن شىء أضر عليهن من شعر عمر بن أبى ربيعة » وقيل فيه : « لا ترووا فتياتكم شعر عمر بن أبى ربيعة لا يتورطن فى الخنا تورطا » وقد أكثر عمر من التعرض للمحصنات العفيفات من نساء قومه ومن غيرهن ، وكان وفود النساء من الأقطار إلى مكة للحج مغرياً له بتتبعهن والتغزل بهن ، فكان إذا وافى موسم الحج خرج فى زينة حسنة وقد لبس الحلل الموشاة، وركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ، ويرسل لمته ، ويلقى العراقيات والمدنيات والشاميات من حيث يقدمن ، ويتعرض لنساء الأشراف وبناتهم حتى يراهن ، ويرقب خروجهن للطواف والسعى ، ويصفهن وهن محرمات، واستطار شره وتمادى فى غيه وشبب ببنات السادات

والخلفاء ، حتى كانت عاقبة أمره أن غضب عايه عمر بن عبد العزيز ونفاه إلى دهلك

ويجدر بنا أن ننبه هنا إلى أن ما جاء فى إحدى روايات الأغانى من أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة لم تكن له همة إلا عمر بن أبى ربيعة والأحوص ، فكتب إلى عامله بالمدينة : قد عرفت عمر والأحوص بالخبث والشر ، فإذا أتاك كتابى هذا فاشددهما واحملهما إلى فحملهما إليه . . . رواية غير صحيحة بالنسبة إلى ابن أبى ربيعة ، لأنه توفى قبل أن يلى عمر الخلافة ، إذ أنه توفى سنة ٩٣ ه على حين أن عمر استخلف سنة ٩٩ ه ، فكيف حمل إليه ؟

استخلاف عمر

قدمنا أن عمر بن عبد العزيز ولد سنة ٦١ أو سنة ٦٣ ه أى زمن خلافة يزيد بن معاوية – وقد ولى الخلافة من سنة ٦٠ إلى سنة ٦٤ – ثم تتابعت بعده الخلفاء : معاوية الثانى ابن يزيد سنة ٦٤ ولم يلبث فى الخلافة إلا ثلاثة أشهر ، وقيل أربعين يوماً ، ثم مروان بن الحكم – من سنة ٦٤ إلى سنة ٦٥ – ثم عبد الملك ابن مروان – من سنة ٦٥ إلى سنة ٨٦ – ثم الوليد بن عبد الملك – من سنة ٨٦ إلى سنة ٩٦ – ثم سليمان بن عبد الملك – من سنة ٩٦ إلى سنة ٩٩ – ثم عمر بن عبد العزيز – من سنة ٩٩ إلى سنة ١٠١ ه . فهو قد ولى الخلافة بعد سليمان ابن عبد الملك .

وكان لسليمان ابن اسمه أيوب ، فعقد له ولاية العهد من بعده ، ولكن أيوب توفى سنة ٩٩ فى حياة أبيه ، ولم يبق لسليمان إلا أولاد صغار ، ثم توفى سليمان وهو ابن تسع وثلاثين سنة .

ذكروا أنه لبس يوماً حلة خضراء وعمامة خضراء ، ونظر

فى المرآة — وكان حسن الوجه — فأعجبه ما رأى من جماله ، فقا ل: أنا الملك الشاب ، وكانت على رأسه وصيفة له ، فرأى شفتيها تتحركان عند قوله ما قال ، فقال : ما قلت ؟ قالت : خيراً ، قال : فأخبرينى ، وأعاد عليها ، قالت : قلت :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى　　غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما علمته فيك عيب　　كان فى الناس غير أنك فانى

فما عاش بعد ذلك إلا أسبوعاً ، أصيب بحمى كانت موصولة بمنيته .

فلما حضرته الوفاة أراد أن يستخلف ، فحضره عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة ، فقال لرجاء : اعرض على ولدى فى القمص والأردية ، فعرضهم عليه ، فإذا هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القمص والأردية ، يسحبونها سحباً ، فنظر إليهم وقال : يا رجاء

إن بنى صبيـــة صغار　　أفلح من كان له كبار

فقال له عمر : يا أمير المؤمنين يقول الله تبارك وتعالى : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » ثم قال سليمان : : يا رجاء ، اعرض على بنى فى السيوف ، فقلدوهم السيوف ، ثم عرضهم عليه ، فإذا هم صغار لا يحملونها ، يجرونها جراً ، فنظر إليهم وقال :

إن بنى صبية صيفيون أفلح من كان له ربعيون

فأعاد عليه عمر ما قاله أولا ، فلما لم ير فى ولده ما يريد ، حدث نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز ، لما كان يعرف من حاله ، فشاور رجاء فيمن يعقد له ، فأشار عليه رجاء بعمر ، وسدد له رأيه فيه ، فوافق ذلك سليمان وقال : لأعقدن عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب ، فلما اشتد به وجعه عهد عهداً كتبه بيده ولم يطلع عليه أحداً إلا رجاء بن حيوة ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبدالله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إنى وليته الخلافة بعدى ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم » .

وعاده عمر وبعض أهل بيته فرأوا به الموت ، فخلا عمر برجاء فقال له : يا رجاء إنى أرى أمير المؤمنين فى الموت ، ولا أحسبه إلا سيعهد ، وأنا أناشدك الله إن ذكرنى بشىء من ذلك إلا صددته عنى ، وإن لم يذكرنى أن لا تذكرنى له فى شىء من ذلك ، فقال له رجاء : لقد ذهب ظنك مذهباً ما كنت أحسبك تذهبه ، أتظن بنى عبد الملك يدخلونك فى أمورهم ؟ وقد كان سليمان فرغ من ذلك، ولكنه أراد إخفاءه عن عمر ، فلما قضى

سليمان قام رجاء فأخذ له البيعة من الناس ، وسلم عليه بإمرة المؤمنين وهو يتنصل ويقول : أنشدك الله يا رجاء ، فقال رجاء : أنشدك الله أن يضطرب بالناس حبل ، فقد لقى سليمان ربه ، وقضى الله عليه الموت ، فقبل عمر .

عمر عقب استخلافه

ولما فرغ عمر من دفن سليمان بن عبد الملك سمع للأرض رجة فإذا مراكب الخلافة : البراذين والخيل والبغال ، ولكل دابة سائس ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين ، قربت إليك لتركبها ، فقال : مالى ولها ؟ نحّوها عنى ، دابتى أوفق لى ، فقربوا إليه بغلته فركبها ، وصرفت تلك الدواب .

وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنح عنى ، مالى ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين .

ثم أقبل سائراً فقيل : تنزل منزل الخلافة ؟ فقال : فيه عيال أبى أيوب — سليمان بن عبد الملك — وفى فسطاطى كفاية حتى يتحولوا ، فأقام فى منزله حتى فرغوه بعد .

وسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أيها الناس ، إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى قد

خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى ، فاختاروا لأنفسكم » .

فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فل أمرنا باليمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضى به الناس جميعاً ، حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شىء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات ، وإن من لا يذكر من آبائه — فيما بينه وبين آدم عليه السلام — أباً حياً لمعرق فى الموت .

وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها عز وجل ، ولا فى نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا فى كتابها ، وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم ، وإنى والله لا أعطى أحداً باطلا ، ولا أمنع أحداً حقاً ، إنى لست بخازن ، ولكنى إنما أضع حيث أمرت .

أيها الناس : إنه قد كان قبلى ولاة تجترون مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، إلا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا

طاعة له ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم » .

ثم نزل فدخل ، فأمر بالستور فهتكت ، والثياب التى كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخال أثمانها فى بيت مال المسلمين .

ثم ذهب يتبوأ مقيلا ، فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أى بنى أقيل ، قال : تقيل ولا ترد المظالم ؟ فقال : أى بنى ، إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم ، قال : يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش إلى الظهر ؟ قال : ادن منى أى بنى ، فدنا منه فالتزمه وقبل بين عينيه ، وقال : الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى ، فخرج ولم يقل ، وأمر مناديه أن ينادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فجعل لا يدع شيئاً مما كان فى يد سليمان وفى يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة .

فلما بلغت الخوارج سيرة عمر وما رد من المظالم اجتمعوا وقالوا: ما ينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل .

نهجه فى حكمه

وقد نهج عمر فى حكمه نهج جده العظيم عمر الفاروق ، واحتذى مثاله ، فسلك بالرعية محجته البيضاء ، وأعاد فيهم سيرته الزاكية الطاهرة ، وهاك اقرأ كتابه إلى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب:

« من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى سالم بن عبدالله

سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله تبارك اسمه ، وتعالى جده ، ابتلانى بما ابتلانى به من أمركم ، من غير مشورة منى فيه ولا طلب ، إلا قضاء من الرحمن الرحيم ، فأسأل الذى ابتلانى بما ابتلانى به من أمر عباده وبلاده أن يحسن عونى وعاقبتى وعاقبة من ولانى أمرهم ، وأن يرزقنى منهم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وأن يرزقهم منى الرأفة والمعدلة ، وقد رأيت أن أسير فى الناس بسيرة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، إن قضى الله ذلك واستطعت إليه سبيلا ، فابعث إلى بكتب عمر وقضائه فى أهل القبلة وأهل العهد ، فإنى متبع أثره وسائر بسيرته إن شاء الله ، وأسأل الله التوفيق لما يحب ويرضى » .

* * *

وكتب أيضاً حين ولى الخلافة إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ،

وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر ، واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك فى قعره فريدا وحيدا ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك

الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك ، لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم ، إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى ، فلم آلك شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »

ردّه المظالم

ومن مآثره التى تذكر له بالحمد والإكبار أنه بدأ عمله فى خلافته برد المظالم ، وبدأ فى ذلك بنفسه فقال : إنه لينبغى ألا أبدأ بأول من نفسى ، فنظر إلى ما فى يديه من أرض أو متاع فخرج منه ، حتى نظر إلى فص خاتم كان فى يده فقال : هذا أعطانيه الوليد من غير حقه مما جاء من أرض المغرب ، فرده .

وخرج مما كان فى يده من القطائع ، وكان فى يده قطائع باليمامة ، والمكيدس وجبل الورس باليمن ، وفدك ، فخرج من ذلك كله ، ورده إلى المسلمين ، إلا أنه ترك عيناً بالسويداء ، وكان استنبطها بعطائه ، فكانت تأتيه غلتها كل سنة ، مائة وخمسون ديناراً أو أقل أو أكثر .

ولما أزمع أن يرد ما لديه ، أمر فنودى فى الناس : الصلاة جامعة ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغى لنا أن نأخذها ، وما كان ينبغى لهم أن يعطوناها ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه دون الله محاسب ، ألا وإنى قد رددتها ،

وبدأت بنفسى وأهل بيتى » اقرأ يا مزاحم — وقد جيء قبل ذلك بسفط فيه تلك الكتب — فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيأخذه عمر وبيده مقص فيقصه به ، حتى لم يبق فيه شيء إلا شقه .

ثم ثنى بزوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله ، فقال لها : اختارى إما أن تردى حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذنى لى فى فراقك ، فإنى أكره أن أكون أنا وأنت فى بيت واحد ، قالت : لا ، بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لى ، فأمر به فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين ، فلما مات عمر واستخلف يزيد بن عبد الملك ، قال لأخته فاطمة : إن شئت رددته عليك ، قالت : فإنى لا أشاؤه ، طبت عنه نفساً فى حياة عمر وأرجع فيه بعد موته ! لا والله أبداً ، فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وولده .

ولا بأس أن نسوق إليك كلمة نحدثك فيها عن « فدك » لما كان لها من عظيم القيمة فنقول :

فدك : قرية بخيبر فيها عين ونخل كثير ، بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سنة سبع صلحا ، فكانت خالصة له ينفق ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ،

فلما قبض عليه السلام جاءت فاطمة رضى الله عنها أبا بكر رضى الله عنه فطلبت ميراثها من أبيها ، وهو أرضه من فدك ، وسهمه من خيبر ، فقال لها أبو بكر : أما إنى سمعت رسول الله يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة ، إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، وإنى والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته . فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت ، وروى أنه قال لها : سمعت رسول الله يقول : إنما هى طعمة أطعمنيها الله تعالى حياتى ، فإذا مت فهى بين المسلمين ، وروى أيضاً أنها قالت له : إن رسول الله جعل لى فدك فأعطنى إياها ، وشهد لها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فسألها شاهداً آخر ، فشهدت لها أم أيمن مولاة رسول الله ، فقال : قد علمت يا بنت رسول الله أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين فانصرفت .

ثم أدى اجتهاد عمر بن الخطاب ، لما ولى الخلافة وفتحت الفتوح واتسعت على المسلمين ، أن يردها إلى ورثة رسول الله ، فكان على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب يتنازعان فيها ، فكان على يقول : إن رسول الله جعلها فى حياته لفاطمة ، وكان العباس يأبى ذلك ويقول : هى ملك رسول الله وأنا وارثه ، فكانا يتخاصمان إلى عمر : فيأبى أن يحكم بينهما ويقول : أنتما

أعرف بشأنكما ، أما أنا فقد سلمتها إليكما ، وقيل إنه لما قبض عليه السلام فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى فدك مثل فعله من وضع ما يأتى منها فى أبناء السبيل .

فلما ولى معاوية ولى مروان بن الحكم المدينة ، فكتب إلى معاوية يطلب فدك ، فأقطعه إياها ، فكانت بيد مروان يبيع تمرها كل سنة بعشرة آلاف درهم ، ثم نزع مروان فنزع يده منها ، فكانت بيد وكيله بالمدينة ، فلما ولى مروان المدينة المرة الأخيرة ردها عليه ، فأعطى ابنه عبد الملك نصفها وابنه عبد العزيز نصفها ، ثم صارت إلى الوليد وسليمان ابنى عبد الملك وإلى عمر بن عبد العزيز ، وطلب عمر إلى الوليد حصته فوهبها له ، وسأل سليمان حصته فوهبها له أيضاً ، فاستجمعها عمر ، وولى الخلافة وما يقوم به وبعياله إلا هى ، تغل كل سنة عشرة آلاف أو أقل أو أكثر ، وما كان له مال أحب إليه منها ، فسأل عنها فأخبر بما كان من أمرها ، فخطب الناس وقص قصة فدك ثم قال : وإنى أشهدكم أنى قد رددتها إلى ما كانت عليه على عهد رسول الله وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وكتب إلى أبى بكر ابن حزم عامله بالمدينة كتاباً يقول فيه :

« إنى نظرت فى أمر فدك فإذا هو لا يصلح ، فرأيت أن أردها إلى ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وابى بكر وعمر وعثمان فاقبضها وولها رجلا يقوم فيها بالحق، وسلام عليك » .

فكان يأخذ مالها فيخرجه فى أبناء السبيل .

وروى أن عمر لما ولى الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة يأمره برد فدك إلى ولد فاطمة رضى الله عنها ، فكانت فى أيديهم فى أيامه ، فلما ولى يزيد بن عبد الملك قبضها فلم تزل فى أيدى بنى أمية ، حتى ولى أبو العباس السفاح الخلافة ، فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فكان هو القيم عليها يفرقها فى بنى على بن أبى طالب ، فلما ولى المنصور وخرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم ، فلما ولى المهدى الخلافة أعادها عليهم ، ثم قبضها منهم الهادى ومن بعده إلى أيام المأمون ، فجاءه رسول بنى على فطالب بها فأمر أن يسجل لهم بها ، فكتب السجل وقرئ على المأمون فقام دعبل الشاعر فأنشد :

أصبح وجه الزمان قد ضحكا　　برد مأمون هاشم فدكا

فلما استخلف المتوكل ردها إلى ما كانت عليه فى عهد رسول الله .

ونعود إلى أصل البحث فنقول : إن عمر لم يكتف برد ما كان فى يده من المظالم ، بل ذكروا أنه كان لا يأخذ من بيت المال شيئاً ، ولا يجرى على نفسه من الفىء درهماً ، وكان عمر بن

الخطاب يجرى على نفسه من ذلك درهمين فى كل يوم ، فقيل لعمر بن عبد العزيز : لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب ، فقال : إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالى يغنينى .

وكذلك حمل بنى مروان على النزول عما كان فى أيديهم من الأموال بغير استحقاق ، وردها إلى ذويها ، روى أنه جاءه رجل ذمى من أهل حمص فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبنى أرضى — والعباس جالس — فقال له : يا عباس ما تقول ؟ قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وكتب لى بها سجلا ، فقال : ما تقول يا ذمى ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر : نعم ، كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، يا عباس اردد عليه ضيعته ، فردها عليه .

وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح ، وكان نشأ فى البادية فكأنه أعرابى ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر يخاصمون روحا فى حوانيت بحمص — وكانت لهم ، أقطعه إياها أبوه الوليد — فقال له عمر : اردد عليهم حوانيتهم ، قال له روح : إنها لى بسجل الوليد ، قال : ما يغنى عنك سجل الوليد ، الحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البينة عليها ، خل لهم حوانيتهم ،

فقام روح والحمصى منصرفين ، فتوعد روح الحمصى ، فرجع إلى عمر فقال : هو والله يتوعدنى يا أمير المؤمنين ، فقال عمر لكعب بن حامد — وهو على حرسه — اخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه حوانيته فذاك ، وإلا فأتنى برأسه . فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح ، فذكر له الذى أمر به عمر ، فخلع فؤاده ، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرا فقال له : قم فخل له حوانيته ، قال : نعم نعم ، فخلى له حوانيته .

وتتابع الناس فى رفع المظالم إليه ، فما رفعت إليه مظلمة إلا ردها سواء كانت فى يده أو فى يد غيره ، حتى أخذ أموال بنى مروان وغيرهم مما صار إليهم ظلماً ، وكان يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة ، وكان يكتفى باليسير ، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس ، وقد ذكروا أنه أنفد بيت مال العراق فى رد المظالم حتى حمل إليها من الشأم .

وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص — من البيت الأموى — بعشرين ألف دينار ، فدارت فى الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قبضها ، فتوفى سليمان قبل أن يقبضها ، وكان عنبسة صديقاً لعمر بن

عبدالعزيز ، فغدا يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان، فوجد بنى أمية حضوراً بباب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه فى أمورهم ، فلما رأوا عنبسة قالوا : ننظر ما يصنع به قبل أن نكلمه ، فدخل عنبسة عليه فقال له : يا أمير المؤمنين . إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لى بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ولم يبق إلا قبضها ، فتوفى على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستمام الصنيعة عندى ، وما بينى وبينه أعظم مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان ، فقال له عمر : كم ذلك ؟ قال : عشرون ألف دينار ، قال عمر : عشرون ألف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها إلى رجل واحد ! والله ما لى إلى ذلك من سبيل ، قال عنبسة : فرميت بالكتاب الذى فيه الصك ، فقال لى عمر : لا عليك أن يكون معك ، فلعله أن يأتيك من هو أجرأ على هذا المال منى فيأمر لك به ، فأخذته وخرجت إلى بنى أمية فأعلمتهم ما كان من ذلك فقالوا : ليس بعد هذا شىء ، ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان ، فرجعت إليه فقلت: يا أمير المؤمنين إن قومك بالباب يسألونك أن تجرى عليهم ما كان من قبلك يجرى عليهم ، فقال عمر : والله ما هذا المال لى ، ومالى إلى ذلك من سبيل ، قلت : يا أمير المؤمنين ، فيسألونك أن تأذن لهم يضربون فى

البلدان ، قال : ما شاءوا ذلك لهم ، وقد أذنت لهم ، قلت : وأنا أيضاً ، قال : وأنت أيضاً قد أذنت لك ، ولكنى أرى لك أن تقيم ، فإنك رجل كثير النقد ، وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشترى منها ما يكون لك فى ربحه عوض مما فاتك ، قال : فأقمت فابتعت من تركة سليمان بمائة ألف ، فخرجت بها إلى العراق فبعتها بمائتى ألف ، وحبست الصك فلما توفى عمر وولى يزيد بن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان ، فأنفذ لى ما كان فيه .

وجمع عمر بنى مروان فقال لهم : يا بنى مروان ، إنكم قد أعطيتم حظاً وشرفاً وأموالا ، وإنى لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها فى أيديكم ، فأدوا ما فى أيديكم من حقوق الناس ، ولا تلجئونى إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون ، فلم يجبه أحد منهم ، فقال : أجيبونى ، فقال رجل منهم : والله لا نخرج من أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا فنفقر أبناءنا ونكفر آباءنا ، حتى تزايل رءوسنا أجسادنا ، فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا على بمن أطلب هذا الحق له ، لأضرعت خدودكم عاجلا ، ولكنى أخاف الفتنة ، ولئن أبقانى الله لأردن إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله .

وذكروا أنه لما منع قرابته ما كان يجرى عليهم من أرزاق الخاصة ، وأخذ منهم القطائع التى كانت فى أيديهم ، شكوه إلى

عمته أم عمر ، فدخلت عليه فقالت : إن قرابتك يشكونك ويزعمون أنك أخذت منهم خبز غيرك ، قال : ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم ، فقالت : إنى رأيتهم يتكلمون ، وإنى أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً ، فقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقانى الله شره .

فلما رجعت إلى بنى أمية قالت لهم : ذوقوا مغبة أمركم فى تزويجكم آل عمر بن الخطاب .

وضج بنو أمية من فعل عمر بن عبد العزيز بهم ، فاجتمعوا إلى عمر بن الوليد بن عبد الملك — وكان كبيرهم وشيخهم — فسألوه أن يكتب إلى عمر يوبخه لعله أن يرده عن مساءتهم ، فكتب إليه :

« إنك آزريت على من كان قبلك من الخلفاء ، وعبت عليهم ، وسرت بغير سيرتهم ، وسميتها المظالم، بغضاً لهم وشنآنا لمن بعدهم من أولادهم ، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً ، يابن عبد العزيز اتق الله وراقبه إن شططت ، لم تطمئن على منبرك حتى خصصت أول قرابتك بالظلم والجور ، فوالذى خص محمداً صلى الله عليه وسلم بما خصه به ، لقد ازددت من الله بعدا فى ولايتك هذه ، إذ زعمت أنها عليك

بلاء ، فأقصر بعض ميلك ، واعلم أنك بعين جبار ، وفى قبضته ، ولن تترك على هذا » .

فلما قرأ عمر كتابه كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد : السلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، أما بعد : فإنه بلغنى كتابك وسأجيبك بنحو منه :

أما أول شأنك يا بن الوليد فإن أمك بنانة أمة السكون كانت تطوف فى أسواق حمص وتدخل فى حوانيتها ، ثم الله أعلم بها ، اشتراها ذبيان بن ذبيان من فىء المسلمين ، فأهداها لأبيك ، فحملت بك ، فبئس الحامل وبئس المحمول ، ثم نشأت فكنت جبارا عنيداً .

تزعم أنى من الظالمين ، لأنى حرمتك وأهل بيتك فىء الله عز وجل الذى هو حق القرابة والمساكين والأرامل ، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبياً سفيهاً على جند المسلمين تحكم بينهم برأيك ، ولم تكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده ، فويل لك وويل لأبيك ، ما أكثر خصماءكما يوم القيامة ، وكيف ينجو أبوك من خصمائه ؟

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب ، يسفك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك أعرابياً جافياً على مصر ، وأذن له فى المعازف واللهو والشراب .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهما فى الخمس .

فرويداً يا بن بنانة فلو التقت حلقتا البطان ، ورد الفىء إلى أهله ، لتفرغت لك ولأهل بيتك ، فوضعتكم على المحجة البيضاء ، فطالما تركتم الحق ، وأخذتم فى بنيات الطريق ، ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أكون رأيته : بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل ، فإن لكل فيك حقا ، والسلام علينا ولا ينال سلام الله الظالمين » .

إبطاله لعن عليّ على المنابر

ومن مآثره أنه أمر بالكف عن لعن على كرم الله وجهه على المنابر ، وهى سنة كان جرى عليها الأمويون منذ خلافة معاوية .

ذكروا أن معاوية كتب نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبى تراب (على) وأهل بيته ، فقامت الخطباء فى كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرءون منه ويقعون فيه وفى أهل بيتـــه .

وكتب إلى عماله فى جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة ، ثم كتب إليهم : انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه ، وشفع ذلك بنسخة أخرى : من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره . فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن على رضى الله عنه (سنة ٥٠ هـ) فازداد البلاء والفتنة .

وحج معاوية بعد موته فدخل المدينة وأراد أن يلعن عليا

على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : إن ها هنا سعد ابن أبي وقاص ، ولا تراه يرضى بهذا ، فابعث إليه وخذ رأيه ، فأرسل إليه وذكر له ذلك فقال : إن فعلت لأخرجن من المسجد ثم لا أعود إليه ، فأمسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد ، فلما مات (سنة ٥٥) لعنه على المنبر ، وكتب إلى عماله أن يلعنوه على المنابر ففعلوا ، فكتبت أم سلمة زوج رسول الله إلى معاوية : إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم ، وذلك أنكم تلعنون على بن أبي طالب ومن أحبه ، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله ، فلم يلتفت إلى كلامها .

وغبر الخلفاء من بعده على هذا الحال حتى ولى عمر بن عبد العزيز ، فأمر بالإقلاع عن لعنه على المنابر ، وجعل مكانه : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » وقيل : بل جعل مكان ذلك : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » وقيل بل جعلهما جميعاً ، فاستعمل الناس ذلك فى الخطبة .

ولا يخفى ما فى اختيار الآية الأولى أو الثانية من إشارة لطيفة إلى ما يجب أن يكون بين المؤمنين من تناسى الأحقاد

والأضغان ، وتطهير قلوبهم من الغل ، وتذكير الأمويين بأن للقرابة التى تنتظمهم والهاشميين حقوقاً توجب عليهم أن يصونوا ألسنتهم عن سبهم والوقيعة فيهم .

اختباره من يريد توليتهم

ولما ولى عمر الخلافة وفد عليه بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى فهنأه فقال : من كانت الخلافة يا أمير المؤمنين شرفته فقد شرفتها ، ومن كانت زانته فقد زنتها ، وأنت والله كما قال مالك بن أسماء :

وتزيدين طيب الطيب طيباً إن تمسيه ، أين مثلك أينا
وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

فجزاه عمر خيراً ، ولزم بلال المسجد يصلى ويقرأ ليله ونهاره ، فهم عمر أن يوليه العراق ، وقال للعلاء بن المغيرة : إن يكن سر هذا كعلانيته فهو رجل العراق غير مدافع ، ودسه إليه ليأتيه بخبره ، فأتاه العلاء فقال له : قد عرفت حالى من أمير المؤمنين ، فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لى ؟ قال : لك عمالتى سنة — وكان مبلغها عشرين ألف ألف درهم — قال : فاكتب لى بذلك ، فأسرع بلال إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة ، فكتب له بذلك ، فأتى العلاء عمر بالكتاب ، فنفاه عمر وأخرجه وقال : يأهل العراق ، إن صاحبكم أعطى

مقولا ، ولم يعط معقولا ، وزادت بلاغته ، ونقصت زهادته .

وكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب والى الكوفة :

« أما بعد ، فإن بلالا غرنا بالله ، فكدنا نغتر ، فسبكناه فوجدناه خبثاً كله ، والسلام » .

عمر ويزيد بن المهلب

لما ولى سليمان بن عبد الملك الخلافة (سنة ٩٦ هـ) ولى يزيد ابن المهلب أمر العراق ، ثم ولاه (سنة ٩٧) خراسان ، وفى سنة ٩٨ فتح يزيد جرجان وطبرستان ، وكتب بالفتح إلى سليمان بن عبد الملك ، وقد جاء فى كتابه إليه : « وقد صار عندى من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » فقال له كاتبه المغيرة بن أبى قرة مولى بنى سدوس : « لا تكتب بتسمية مال ، فإنك من ذلك بين أمرين : إما استكثره فأمرك بحمله ، وإما سخت نفسه لك به فسوغكه ، فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شىء إلا استقله ، فكأنى بك قد استغرقت ما سميت ولم يقع منه موقعاً ، ويبقى المال الذى سميت مخلداً عندهم عليك فى دواوينهم ، فإن ولى وال بعده أخذك به ، وإن ولى من يتحامل عليك لم يرض منك بأضعافه ، فلا تمض كتابك ، ولكن اكتب بالفتح وسله القدوم فتشافهه بما أحببت مشافهة وتقصر ، فإنك أن

تقصر عما أحببت أحرى من أن تكثر ، فأبى يزيد وأمضى الكتاب .

وقد صدق حدس المغيرة ، فإن عمر بن عبدالعزيز لما ولى الخلافة بعد سليمان — وكان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم — دعا يزيد وسأله عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان ، فقال له : كنت من سليمان بالمكان الذى رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشىء سمعت به ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجد فى أمرك إلا حبسك . فاتق الله وأد ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها ، وأمر به فحبس ، وبعث إلى الجراح بن عبدالله الحكمى فسرحه إلى خراسان .

وأقبل مخلد بن يزيد بن المهلب من خراسان حتى قدم على عمر ، فدخل عليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله يا أمير المؤمنين صنع لهذه الأمة بولايتك عليها ، وقد ابتلينا بك ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، علام تحبس هذا الشيخ ؟ أنا أتحمل ما عليه ، فصالحنى على ما إياه تسأل ، فقال عمر : لا ، إلا أن تحمل جميع ما نسأله إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بينة فخذ بها ، وإن لم تكن بينة فصدق مقالة يزيد وإلا فاستحلفه ، فإن لم يفعل فصالحه ، فقال له

عمر: ما أجد إلا أخذه بجميع المال ، وخرج مخلد فلم يلبث إلا قليلا حتى مات .

فلما أبى يزيد أن يؤدى إلى عمر شيئاً ألبسه جبة من صوف وحمله على جمل ثم قال : سيروا به إلى دهلك، فلما أخرج فمر به على الناس أخذ يقول : ما لى عشيرة! مالى يذهب بى إلى دهلك! إنما يذهب إلى دهلك بالفاسق المريب الخارب ، سبحان الله ، أمالى عشيرة ! فدخل على عمر سلامة بن نعيم فقال : يا أمير المؤمنين ، اردد يزيد إلى محبسه ، فإنى أخاف إن أمضيته أن ينتزعه قومه، فإنى قد رأيت قومه قد غضبوا له . فرده إلى محبسه ، فلم يزل فيه حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك من بعده ، لأنه كان قد عذب أصهاره آل أبى عقيل (آل الحجاج) — إذ كانت أم الحجاج بنت محمد ابن يوسف أخى الحجاج بن يوسف عند يزيد بن عبد الملك ، فولدت له الوليد بن يزيد — وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله لئن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ليقطعن منه طابقاً ، فخشى ذلك فهرب من السجن سنة ١٠١ هـ، ومات عمر وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك، ولحق يزيد بن المهلب بالبصرة، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها — وهو عدى بن أرطاة

الفزارى ـ فحبسه وخلع يزيد ، فسير إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ومسلمة بن عبد الملك لحربه ، فقتل ابن المهلب فى أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

قوته فى الجدل

كان للثقافة الدينية والأدبية التى تلقاها عمر فى المدينة أثر بعيد المدى فى قوة حجته وشدة عارضته ، وترى ذلك جلياً فى حجاجه وجداله مع الخوارج ، وكانوا قوماً لُدّا يلجون فى الخصومة ، ولا يفيئون إلى الحق ، ولكن عمر كان يفحمهم ويدحض حجتهم ، وكان يصاولهم بحذق ومهارة ويضيق عليهم الخناق حتى يضطرهم إلى الإذعان والتسليم .

ذكروا أنه خرج سنة مائة بالجزيرة شوذب الخارجى — واسمه بسطام ، من بنى يشكر — فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك منى ، فهلم إلى أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا ، فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفت: وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبنى شيبان حبشياً اسمه عاصم ورجلا من من بنى يشكر ، فقدما على عمر بخناصرة ، فأخبر بمكانهما فقال : فتشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما ، فلما

دخلا قالا : السلام عليك ، ثم جلسا .

فقال لهما عمر : أخبرانى ، ما الذى أخرجكم مخرجكم هذا ؟ وما نقمتم علينا ؟ فقال عاصم : ما نقمنا سيرتك ، إنك لتتحرى العدل والإحسان ، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس ومشورة ، أم ابتززتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وعهد إلى رجل كان قبلى فقمت ولم ينكره على أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس ، فاتركونى ذلك الرجل ، فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لى عليكم ، فقالا : بيننا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتناه فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك ، فقال عمر : وما هو؟ قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم ، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق ، فتكلم عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعاناً ، وقال إبرهيم : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » وقال

الله عز وجل : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » وقد سميت أعمالهم ظلماً ، وكفى بذلك ذماً ونقصاً ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرنى : متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته ، قال : أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ، ولا يسعنى أن لا ألعن أهل بيتى وهم مصلون صائمون ! قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقرّ به وبشرائعه قبل منه ، فإن أحدث حدثاً أقيم عليه الحد ، فقال الخارجى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده ، قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء ، قال عاصم : فابرأ ممن خالف عملك ، ورد أحكامهم ، قال عمر : أخبرانى عن أبى بكر وعمر : أليسا من أسلافكما ، وممن تتوليان ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قالا : اللهم نعم ، قال : فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبى الذرارى ؟ قالا : نعم ، قال : فهل علمتما أن عمر قام بعد أبى بكر فرد تلك السبايا

إلى عشائرها بفدية ؟ قالا : نعم ، قال : فهل برئ عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قالا : لا ، قال فأخبرانى عن أهل النهروان ، أليسوا من صالحى أسلافكم ، وممن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قالا : بلى ، قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دماً ، ولم يخيفوا آمناً ، ولم يأخذوا مالا ؟ قالا: نعم ، قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن فديك استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبدالله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبحوا حياً من أحياء العرب فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والأطفال ، حتى جعلوا يلقون الصبيان فى قدور الأقط وهى تفور؟ قالا : قد كان ذلك ، قال : فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالا: لا ، قال : فهل تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين؟ قالا : لا ، قال : أرأيتم الدين واحداً أم اثنين ؟ قالا : بل واحداً ، قال : فهل يسعكم فيه شيء يعجز عنى ؟ قالا : لا ، قال : فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء : فى الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعنى فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتى

والتبرؤ منهم ! ويحكم ! إنكم قوم جهال ، أردتم أمراً فأخطأتموه ، فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمن عنده ، قالا : ما نحن كذلك ، قال عمر : بل سوف تقرون بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فمن فعل ذلك حقن دمه وأحرز ماله ، ووجبت حرمته ، وكانت له أسوة المسلمين ؟ قالا نعم ، قال : أفلستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فتستحلون دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرمون دمه ؟ فقال اليشكرى : أرأيت رجلا ولى قوما وأموالهم فعدل فيها ، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أتراه أدى الحق الذى يلزمه لله عز وجل ؟ أو تراه قد سلم ؟ قال عمر : لا ، قال : أفتسلم هذا الأمر إلى « يزيد » من بعدك ، وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاه غيرى ، والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى ، قال : أفترى ذلك من صنع من ولاه حقا ؟ فبكى عمر وقال : أنظرانى ثلاثا ، فخرجا من عنده ، ثم عادا إليه ،

فقال عاصم : أشهد أنك على حق ، فقال عمر لليشكرى : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفتات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم .

فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فتوفى بعد خمسة عشر يوما ، فكان عمر يقول : أهلكنى أمر يزيد ، وخصمت فيه فأستغفر الله ، فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاه سما ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثا ، حتى مرض ومات .

* * *

وكذلك كانت حجته قوية متينة فى محاجته طائفة القدرية — وهم الذين ينكرون قدر الله تعالى ، ويغالون فى إثبات القدرة للإنسان ، وأنه لا يحتاج إلى معونة إلهية فى أعماله — وتتبين ذلك فى مناظرته غيلان الدمشقى فى القدر :

حكى ابن مهاجر قال : بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان وفلانا نطقا فى القدر ، فأرسل إليهما وقال : ما الأمر الذى تنطقان به ؟ فقالا : هو ما قال الله يا أمير المؤمنين ، قال : وما قال الله ؟ قالا : قال : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » ثم قال : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا »

ثم سكتا ، فقال عمر : اقرأا ، فقرأا حتى بلغا : « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله . . . إلى آخر السورة » قال : كيف تريان . . . ؟ تأخذان الفروع ، وتدعان الأصول !

قال ابن مهاجر : ثم بلغ عمر بن عبد العزيز أنهما أسرفا ، فأرسل إليهما وهو مغضب ، فقام عمر وكنت خلفه قائماً حتى دخلا عليه ، وأنا مستقبلهما ، فقال لهما : ألم يكن فى سابق علم الله حين أمر الله إبليس بالسجود أن لا يسجد ؟ قال : فأومأت إليهما برأسى أن قولا نعم ، وإلا فهو الذبح ، فقالا : نعم ، فقال : أولم يكن فى سابق علم الله حين نهى آدم وحواء عن الشجرة أن يأكلا منها ، فألهمهما أن يأكلا منها ؟ فأومأت إليهما برأسى ، فقالا : نعم ، فأمر بإخراجهما وأمر بالكتاب إلى سائر الأعمال بخلاف ما يقولان ، وأمسكا عن الكلام فلم يلبثا إلا يسيرا حتى مرض عمر ومات ولم يفد الكتاب ، وسال بعد ذلك منهما السيل .

وكان غيلان قد تاب على يد عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد جئتك ضالا فهديتنى ، وأعمى فبصرتنى ، وجاهلا فعلمتنى ، والله لا أتكلم فى شىء من هذا الأمر أبدا ، فقال عمر : اللهم إن كان كاذباً فلا تمته حتى تذيقه حر السيف ، فقطعت يداه

ورجلاه وصلب في أيام هشام بن عبد الملك حين قال : يا غيلان ، ما هذه المقالة التي بلغتني عنك في القدر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين هو ما بلغك ، فأحضر من أحببت يحاجني ، فإن غلبني ضربت رقبتي ، فأحضر الأوزاعي ، فقال له الأوزاعي : يا غيلان إن شئت ألقيت عليك سبعا ، وإن شئت خمسا ، وإن شئت ثلاثا ، فقال : ألق ثلاثا ، فقال له : أقضى الله على عبد ما نهى عنه ؟ قال : ما أدري ما تقول ، قال : فأمر الله بأمر حال دونه ؟ قال : هذه أشد من الأولى ، قال : فحرم الله حراماً ثم أحله ؟ قال : ما أدري ما تقول ، قال : فأمر به هشام فقطعت يداه ورجلاه فمات ، وقيل صلب حياً على باب كيسان بدمشق .

ثم قال هشام للأوزاعي : يا أبا عمر ، فسر لنا ما قلت ، قال : قضى الله على عبد ما نهى عنه : نهى آدم أن يأكل من الشجرة ، ثم قضى عليه فأكل منها ، وأمر إبليس أن يسجد لآدم ، وحال بين إبليس والسجود ، وقال : « حرمت عليكم الميتة » ثم قال : « فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » فأحلها بعد ما حرمها .

وقيل لغيلان : من كان أشد عليك ؟ قال : عمر بن عبد العزيز : كأنما كان يلقن من السماء .

* *

وكتب إلى نفر كتبوا بالتكذيب بالقدر :

« أما بعد : فقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، وسينقص العلم نقصاً سريعاً ، ومنه قول عمر بن الخطاب وهو يعظ : إنه لا عذر لأحد عبدالله بعد البينة بضلالة ركبها حسبها هدى ، ولا فى هدى تركه حسبه ضلالة ، فقد تبينت الأمور ، وثبتت الحجة ، وانقطع العذر ، فمن رغب عن أنباء النبوة وما جاء به الكتاب ، تقطعت من يده أسباب الهدى ، ولم يجد له عصمة ينجو بها من الردى .

وبلغكم أنى أقول : إن الله قد علم ما العباد عاملون ، فأنكرتم ذلك ، وقد قال تعالى « إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون » وقال : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » وزعمتم فى قول الله : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » أن المشيئة فى أى ذلك أحببتم : من ضلال أو هدى ، والله يقول : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » فبمشيئته لهم شاءوا ، وقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعاً ، فما اهتدى إلا من هداه الله ، وحرص إبليس على ضلالتهم جميعاً ، فما ضل منهم إلا من كان فى علم الله ضالا ، وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من الله ضلالة أو هدى ، وأنكم الذين هديتم أنفسكم من دون الله ، وحجرتموها عن المعصية

بغير قوة من الله ، ومن زعم ذلك منكم فقد غلا فى القول ، لأنه لو كان شيء لم يسبق فى علم الله وقدره ، لكان لله فى ملكه شريك تنفذ مشيئته فى الخلق دون الله ، والله يقول : « حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان » وسميتم نفاذ الله فى الخلق حيفاً وقد جاء الخبر « إن الله عز وجل خلق آدم فنثر ذريته بين يديه ، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وكتب أهل النار وما هم عاملون » .

عمر والشعراء أيام خلافته

حدثناك من قبل عن عمر والشعراء أيام إمارته على المدينة ، ونحدثك الآن عن عمر والشعراء أيام خلافته فنقول :

لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله ، وكان فيمن حضر نصيب وجرير والفرزدق والأحوص وكثير والحجاج القضاعى والأخطل ، فأقاموا ببابه شهراً لا يأذن لهم بالدخول — ولم يكن لعمر فيهم رأى ولا أرب ، وإنما كان رأيه وبطانته وأهل أربه القراء والفقهاء ومن وسم عنده بورع ، يبعث إليهم حيث كانوا من بلدانهم — حتى قدم عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلى ، وكان ورعاً فقيهاً مفوها فى المنطق ، فرآه جرير على باب عمر معتماً بعمامة قد أرخى طرفيها ، فصاح به جرير :

يأيها القارئُ المرخى عمامته ... هذا زمانك إنى قد مضى زمنى
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ... أنى لدى الباب كالمصفود فى قرن
وحش المكانة من أهلى ومن ولدى
نائى المحلة عن دارى وعن وطنى

قال : نعم ، أبا حزرة ، ونعمى عين ، فلما دخل على عمر قال : يا أمير المؤمنين إن الشعراء ببابك ، وسهامهم مسمومة ، وأقوالهم نافذة باقية ، فقال : ويحك ! مالى وللشعراء ؟ قال : أعز الله أمير المؤمنين ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح وأعطى ، وفى رسول الله أسوة لكل مسلم ، قال : ومن مدحه ؟ قال : عباس بن مرداس ، فكساه حلة قطع بها لسانه ، قال : وتروى من قوله شيئاً ؟ قال : نعم ، وأنشده :

رأيتك يا خير البرية كلها نشرت كتاباً جاء بالحق معلما
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا
عن الحق لما أصبح الحق مظلما
ونورت بالتبيان أمراً مدمساً وأطفأت بالبرهان نارا تضرما
فمن مبلغ عنى النبى محمداً وكل امرئ يجزى بما كان قدما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه
وكان قديماً ركنه قد تهدما

قال : صدقت ، فمن بالباب منهم ؟ قال : ابن عمك عمر ابن أبى ربيعة ، قال : لا قرب الله قرابته ، ولا حيا وجهه ، أليس هو القائل :

ألا ليت أنى يوم حانت منيتى
شممت الذى ما بين عينيك والفم

وليت طهورى كان ريقك كله
وليت حنوطى من مشاشك والدم
ويا ليت سلمى فى القبور ضجيعتى
هنالك أو فى جنـــة أو جهنم

فليته والله تمنى لقاءها فى الدنيا ويعمل عملا صالحاً ، والله لا دخل علىّ أبدا .

« وفى رواية أخرى أنه قال : أليس يقول :

ثم نبهتهـــا فهبت كعاباً طفلة ما تبين رجع الكلام
ساعة ثم إنها بعد قالت ويلتا ! قد عجلت يا بن الكرام
أعلى غير موعد جئت تسرى تتخطى إلىّ روس النيام ؟

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم على نفسه ! لا يدخل والله علىّ أبدا » .

فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : جميل بن معمر العذرى ، قال : أليس هو الذى يقول :

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت يوافى لدى الموتى ضريحى ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغب إذا قيل قد سوى عليها صفيحها
أظل نهارى لا أراها ، ويلتقى مع الليل روحى فى المنام وروحها

اعزب به ، فوالله لا دخل على أبدا ، فمن غير من ذكرت ؟ قال : كثير عزة : قال : هو الذى يقول :

رهبان مدين والذين عهدتهم　　يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها　　خروا لعزة ركعاً وسجودا

اعزب به ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : الأحوص الأنصارى ، قال : أبعده الله ومحقه ، أليس هو القائل وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جارية هربت منه :

الله بينى وبين سيدها　　يفر عنى بها وأتبـــع

اعزب به ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : همام بن غالب الفرزدق ، قال : أليس هو القائل يفخر بالزنا :

همـــا دلتانى من ثمانين قامـــة
كما انقض باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا
أحى يرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا
ووليت فى أعقاب ليـــل أبادره

اعزب به ، لا يطأ والله بساطى ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : الأخطل التغلبى ، قال : أليس هو الذى يقول :

فلست بصائم رمضان عمرى　　ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجر عنساً بكوراً　　إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالعير أدعو　　قبيل الصبح حى على الفلاح

ولكنى سأشربهـــا شمولا وأسجد عند منبلج الصباح

اعزب به فوالله لا وطئ لى بساطاً أبداً وهو كافر ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : جرير بن الخطفى ، قال : أليس هو القائل :

لولا مراقبـــة العيون أريننا مقل المها وسوالف الآرام
هل ينهينك أن قتلن مرقشاً أو ما فعلن بعروة بن حزام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة ، فارجعى بسلام

فإن كان لا بد فهذا ، فأذن لجرير فدخل وهو يقول :

إن الذى بعث النبى محمدا جعل الخلافة فى إمام عادل
وسع الخلائق عدله ووفاؤه حتى ارعووا وأقام ميل المائل
والله أنزل فى القران فريضة لابن السبيل وللفقير العائل
إنى لأرجو منك خيرا عاجلا والنفس مولعة بحب العاجل

فلما مثل بين يديه قال : ويحك يا جرير ، اتق الله ولا تقل إلا حقا ، فأنشأ يقول :

أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت
أم أكتفى بالذى نبئت من خبرى
كم باليمامـــة من شعثاء أرملة
ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

ممن يعــدك تكفى فقــد والده
كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعــوة ملهوف كأن به
خبلا من الجن أو مسًّا من البشر
خليفــة الله ماذا تأمرون بنــا
لسنا إليكم ، ولا فى دار منتظر
ما زلت بعدك فى هم يؤرقــنى
قد طال فى الحى إصعادى ومنحدرى
لا ينفــع الحاضر المجهود بادينا
ولا يعود لنــا باد عــلى حضر
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا
من الخليفــة ما نرجو من المطر
نال الخلافــة إذ كانت له قدراً
كما أتى ربه موسى عــلى قدر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتهــا
فمن لحاجــة هذا الأرمل الذكر

فقال : يا جرير ، والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة درهم ، فمائة أخذها عبدالله (ابنه) ، ومائة أخذتها أم عبدالله ، يا غلام أعطه المائة الباقية ، فأخذها وقال : والله يا أمير

المؤمنين إنها لأحب مال كسبته إلىّ .

وفى خبر ثان : أن عمر قال له : يا بن الخطفى ، أمن أبناء المهاجرين أنت فنعرف لك حقهم ، أم من أبناء الأنصار فيجب لك ما يجب لهم ، أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب صدقات قومك فيصلك بمثل ما يصل به قومك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا بواحد من هؤلاء ، وإنى لمن أكثر قومى مالا ، وأحسنهم حالا ، ولكنى أسألك ما عودتنيه الخلفاء : أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان ، فقال له عمر : كل امرئ يلقى فعله ، وأما أنا فما أرى لك فى مال الله حقاً ، ولكن انتظر يخرج عطائى ، فأنظر ما يكفى عيالى سنة منه فأدخره لهم ، ثم إن فضل فضل صرفناه إليك ، فقال جرير : لا ، بل يوفر أمير المؤمنين ويحمد ، وأخرج راضياً ، قال : فذلك أحب إلى ، فخرج ، فلما ولى قال عمر : إن شر هذا ليتقى ، ردوه إلى ، فردوه فقال : إن عندى أربعين ديناراً وخلعتين ، إذا غسلت إحداهما لبست الأخرى ، وأنا مقاسمك ذلك ، على أن الله جل وعز يعلم أن عمر أحوج إلى ذلك منك ، فقال له : قد وفرك الله يا أمير المؤمنين ، وأنا والله راض ، قال : أما وقد حلفت فإن ما وفرته على ولم تضيق به معيشتنا آثر فى نفسى من المدح ، فامض مصاحباً .

وفى خبر ثالث : أن عمر لما سأله : أمن أبناء المهاجرين أنت . . . قال : يا أمير المؤمنين فإنى ابن سبيل ، قال : لك ما لأبناء السبيل : زادك ونفقة تبلغك وتبدل براحلتك إن لم تحملك ، فألح عليه ، فقال له بنو أمية : يا أبا حزرة ، مهلا عن أمير المؤمنين ونحن نرضيك من أموالنا عنه ، فجمع له بنو أمية مالا عظيماً ، فما خرج من عند خليفة بأكثر مما خرج من عند عمر.

فلما خرج من عنده قال له الشعراء : ما وراءك ؟ قال : ما يسوءكم ، خرجت من عند رجل يعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وأنا مع ذلك عنه راض ، ثم أنشأ يقول :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيا

وأنت ترى مما قدمناه لك أن عمر كان بصيراً بشعر هؤلاء الشعراء الذين انتجعوه للعطاء ، عالماً بما يحويه من هنات ومثالب ، ناقداً لما يشوبه من انحراف عن الجادة ، وزيغ عن سنن الخلق الكريم ، والدين القويم ، وذلك يدلك بوضوح على مكانته الأدبية السامية ، وأنه كان يعنى بقراءة ما ينتجه شعراء عصره ، وأنه كان يحفظ من أشعارهم وينقدها ، وأنه كان لا يحب من الشعر إلا ما كان حقاً عفا .

وإن فيما أورده لكل منهم من الأبيات التى أخذها عليهم ، لدليلا على أنه كان يحفظ لهم غيرها مما يستجاد ولا يعاب ، إذ لا يعقل أن يكون قد قصر علمه بشعرهم على تلك الأبيات المعدودة المشينة فحسب !

وشيء آخر تراه فى تلك القصة : وهو أن عمر كان لا يرى للشعراء فى بيت مال المسلمين حقاً ، وأن تلك السنة التى استنها الخلفاء الأمويون قبله من إفاضة العطاء على المداح من الشعراء ، سنة غير محمودة ، وإسراف فى مال الله سوف يسألهم الله عنه ، واستمع إليه وهو يقول لجرير حين سأله ما عوده الخلفاء من الجوائز : كل امرئ يلقى فعله . وماذا يعمل وهو يرى أن جريراً يتقى شره ، ويخاف لسانه ؟ إنه لا مناص له من أن يرضيه ويقطع لسانه بالعطاء ، ولكنه يأبى عليه دينه أن يرضيه على حساب الأمة ، ومن أموال الأمة ، فارتضى أن يعطيه من عطائه الخاص ، ويشاطره ماله الخاص ، على شدة افتقاره إليه .

* * *

وهذا موقف آخر له مع الشعراء يشبه الموقف السالف .

حدث كثير عزة قال :

لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قدمت أنا ونصيب والأحوص ، وكل واحد منا يدل بسابقته عند عبد العزيز بن

مروان ، وإخائه لعمر ، فكان أول من لقينا مسلمة بن عبد الملك ، وهو يومئذ فتى العرب ، وكل واحد منا ينظر فى عطفه لا يشك أنه شريك الخليفة فى الخلافة ، فأحسن ضيافتنا ، وأكرم مثوانا ، ثم قال : أما علمتم أن إمامكم لا يعطى الشعراء شيئاً ! قلنا : قد جئنا الآن ، فوجه لنا فى هذا الأمر وجهاً ، فقال : إن كان ذو دين من آل مروان قد ولى الخلافة فقد بقى من ذوى دنياهم من يقضى حوائجكم ، ويفعل بكم ما أنتم له أهل ، لكم عندى ما تحبون ، فأقمنا على بابه أربعة أشهر لا نصل إليه ، وجعل مسلمة يستأذن لنا فلا يؤذن ، فقلت : لو أتيت المسجد يوم الجمعة فتحفظت من كلام عمر شيئاً ، فأتيت المسجد ، فسمعته يقول فى خطبة له :

« لكل سفر زاد لا محالة ، فتزودوا من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فعمل طلباً لهذا ، وخوفاً من هذا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، واعلموا أنه إنما يطمئن بالدنيا من وثق بالنجاة من عذاب الله فى الآخرة ، فأما من لا يداوى جرحاً إلا أصابه جرح من ناحية أخرى ، فكيف يطمئن بالدنيا ، أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى نفسى عنه ، فتخسر

صفقتى ، وتبدو علتى ، وتظهر مسكنتى ، فى يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق » .

فارتج المسجد بالبكاء وبكى عمر ، حتى بل ثوبه ، حتى ظننا أنه قاض نحبه ، فبلغت إلى صاحبى فقلت : جددا لعمر من الشعر غير ما أعددناه ، فإن الرجل آخرى ، وليس بدنيوى .

ثم إن مسلمة استأذن لنا يوم جمعة بعد ما أذن للعامة ، فدخلنا فسلمنا عليه بالخلافة ، فرد علينا ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، طال الثواء ، وقلت الفائدة ، وتحدثت بجفائك إيانا وفود العرب ، فقال : يا كثير ، أما سمعت إلى قول الله عز وجل فى كتابه :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » أفمن هؤلاء أنت ؟ فقلت له وأنا ضاحك : أنا ابن سبيل ومنقطع به ، قال : أولست ضيف أبى سعيد ؟ قلت : بلى ، قال: ما أحسب من كان ضيف أبى سعيد ابن سبيل ولا منقطعا به ، ثم استأذنته فى الإنشاد ، فقال : قل ، ولا تقل إلا حقاً ، فإن الله سائلك ، فقلت :

وليت فلم تشتم عليا ، ولم تخف
بريّا ، ولم تتبع مقالة مجرم

وقلت فصدقت الذى قلت بالذى
فعلت ، فأضحى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغـــه
من الأود الباقى ثقاف المقوم
لقد لبست لبس الهلوك ثيابهـــا
وأبدت لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحياناً بعـــين مريضة
وتبسم عن مثـــل الجمان المنظم
فأعرضت عنهـــا مشمئزاً كأنمـــا
سقتك مدوفاً من سمام وعلقم
وقد كنت من أجبالها فى ممنـــع
ومن بحرها فى مزبد الموج مفعم
وما زلت سباقاً إلى كل غايـــة
صعدت بها أعلى البنـــاء المقـــدم
فلما أتاك الملك عفوا ولم يكن
لطالب دنيـــا بعده من تقـــدم
تركت الذى يفنى وإن كان مونقا
وآثرت ما يبـــقى برأى مصمم

فأضررت بالفـــانى وشمرت للذى
أمامك فى يوم من الهول مظلم
ومالك (أن كنت الخليفة) مانع
(سوى الله) من مال رعيت ولا دم
سما لك هم فى الفـــؤاد مؤرق
صعدت به أعـــلى المعالى بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها
مناد ينادى من فصيح وأعجم
يقول أمـــير المؤمنـــين ظلمتنى
بأخـــذ لدينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لامرئ ظالم له
ولا السفك منه ظالما ملء محجم
فلو يستطيع المسلمون لقسموا
لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فعشت به ما حج لله راكب
مغـــذ مطيف بالمقام وزمزم
فأربح بهـــا من صفقـــة لمبايع
وأعظم بهـــا أعظم بها ثم أعظم

فقال لى : يا كثير إن الله سائلك عن كل ما قلت ، ثم تقدم

الأحوص فاستأذنه ، فقال : قل ولا تقل إلا حقا، فإن الله سائلك ، فأنشده :

وما الشعر إلا خُطبة من مؤلف
بمنطق حق أو بمنطق باطــل
فلا تقبلن إلا الذى وافق الرضـــا
ولا ترجعنّـــا كالنساء الأرامـــل
رأيناك لم تعـــدل عن الحق يمنـــة
ولا يسرة فعـــل الظلوم المجادل
ولكن أخذت القصد جهـــدك كله
وتقفو مثـــال الصالحـــين الأوائل
فقلنا (ولم نكذب) بما قد بدا لنا
ومن ذا يرد الحق من قول قائل
ومن ذا يرد السهم بعـــد مضائه
على فوقه إذ عار من نبل نابل
ولولا الذى قـــد عودتنا خلائف
غطاريف كانوا كالليوث البواسل
لما وخـــدت شهراً برحلى جسرة
تفـــلّ متون البيد بين الرواحـــل

ولكن رجونا منك مثـــل الذى به
حبينـــا قديماً من ذويك الأفاضل
فإن لم يكن للشعر عنـــدك موضع
وإن كان مثل الدر فى نظم قائل
وكان مصيبا صادقاً لا يعيبـــه
سوى أنه يبنى بنـــاء المنـــازل
فإن لنـــا قربى ومحض مـــودة
وميراث آباء مشوا بالمناصل
فذادوا عدو السلم عن عقر دارهم
وأرسوا عمود الدين بعـــد تمايل
وقبلك ما أعطى الهنيـــدة جلـــة
على الشعر « كعبا » من سديس وبازل
رسول الإله المستضاء بنـــوره
عليـــه سلام بالضحا والأصائل
فكل الذى عددت يكفيك بعضه
ونيلك خـــير من بحور السوائل

فقال له عمر : يا أحوص إن الله سائلك عن كل ما قلت . ثم تقدم إليه نصيب فاستأذن فى الإنشاد ، فأبى أن يأذن له وغضب غضباً شديداً وأمره باللحاق بدابق ، وقال لنا : ما عندى

ما أعطيكم ، فانتظروا حتى يخرج عطائى فأواسيكم منه ، فانتظرناه حتى خرج ، فأمر لى وللأحوص بثلثمائة درهم ، وأمر لنصيب بمائة وخمسين درهما ، فما رأيت أعظم بركة من الثلاث المائة التى أعطانى ، ابتعت بها وصيفة فعلمتها الغناء فبعتها بألف دينار.

وهنا مسألة تستوقف الباحث وتسترعى نظره ، فقد اضطربت الروايات بشأن الأحوص فى عهد خلافة عمر ، فالخبران السالفان ينبئاننا أنه وفد على عمر لما استخلف ، والأول ينبئ أنه لم يأذن له فى الدخول ، وقال فيه : أبعده الله وسحقه ، والثانى ينبئ أنه أذن له ، وأنه أنشده لاميته السابقة ، وهاك استمع خبراً ثالثاً ينبئ أنه كان بمنفاه فى دهلك إبان خلافة عمر !

ذكروا أن الأحوص كان ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة ، ويتغنى فى شعره معبد ومالك ، ويشيع ذلك فى الناس ، فنهى فلم ينته ، فشكى إلى عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة ، وسألوه الكتاب فيه إليه ، ففعل ذلك ، فكتب سليمان إلى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط ويقيمه على البلس للناس ، ثم يصيره إلى دهلك ففعل ذلك به ، فثوى هنالك سلطان سليمان بن عبد الملك .

ثم ولى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه يستأذنه فى القدوم ويمدحه ، فأبى أن يأذن له ، وكان قد كتب إليه :

أيا راكباً إما عرضت فبلغن (هديت) أمير المؤمنين رسائلى
وقل لأبى حفص إذا ما لقيته لقد كنت نفاعاً قليل الغوائل
أفى الله أن تدنوا « ابن حزم » وتقطعوا
قوى حرمات بيننا ووصــائل
وكيف ترى للعيش طيباً ولذة وخالك أمسى موثقا فى الحبائل
وما طمع الحزمى فى الجاه قبلها إلى أحد من آل مروان عادل
وشى وأطاعوه بنا وأعانــه على أمرنا من ليس عنا بغافل
وكنت أرى أن القرابة لم تدع ولا الحرمات فى العصور الأوائل
إلى أحد من آل مروان ذى حجى
بأمر كرهنــاه مقالا لقائل
يسر بما أنهى العدو وإنه كنافلة لى من خيار النوافل
فهل ينقصنى القوم أن كنت مسلماً
بريئاً بلائى فى ليــال قلائــل
ألا رب مسرور بنا سيغيظه
لدى غب أمر عضه بالأنامــل
رجا الصلح منى آل حزم بن فرتنى
على دينهم جهلا ولست بفاعــل
ألا قــد يرجون الهوان فإنهم
بنو حبق ناء عن الخــير فائل

على حين حل القول بى وتنظرت
عقوبتهم منى رءوس القبائل
فمن يك أمسى سائلا بشماتـــة
بما حل بى أو شامتاً غير سائل
فقد عجمت منى العواجم ماجداً
صبوراً على عضات تلك التلاتل
إذا نال لم يفرح ، وليس لنكبة
إذا حدثت بالخاضع المتضائل

فرحل رجال من الأنصار إلى عمر بن عبد العزيز فكلموه فيه وسألوه أن يقدمه وقالوا له : قد عرفت نسبه وموضعه وقديمه ، وقد أخرج إلى أرض الشرك ، فنطلب إليك أن ترده إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه ، فقال لهم عمر : فمن الذى يقول :

فما هى إلا أن أراها فجاءة فأبهت حتى ما أكاد أجيب

قالوا : الأحوص ، قال : فمن الذى يقول :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور
وما كنت زواراً ولكن ذا الهوى إذا لم يزر لا بد أن سيزور

قالوا : الأحوص ، قال : فمن الذى يقول :

كأن لبني صبير غاديـــة أو دمية زينت بها البيع

الله بيني وبـــين قيمها يفر منى بهـــا وأتبع

قالوا : الأحوص ، قال : بل الله بين قيمها وبينه ، فمن الذى يقول :

سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا

سريرة حب يوم تبلى السرائر

قالوا : الأحوص ، قال : إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول ، والله لا أرده ما كان لى سلطان . فمكث هناك ولاية عمر وصدراً من ولاية يزيد بن عبد الملك ، ثم رده يزيد وخلى سبيله .

وذلك أن الأحوص دس إلى حبابة جارية يزيد فغنته قوله فيه :

كريم قريش حين ينسب ، والذى

أقرت له بالملك كهلا وأمردا

وليس وإن أعطاك فى اليوم مانعاً

إذا عدت من أضعاف إعطائه غدا

أهان تلاد المال فى الحمد ، إنه

إمام هدى ، يجرى على ما تعودا

تشرف مجداً من أبيـــه وجـــده

وقد ورثا بنيان مجـــد تشيـــدا

فقال يزيد : ويلك يا حبابة ! من هذا من قريش ؟ قالت :

ومن يكون ؟ أنت هو يا أمير المؤمنين ، فقال : ومن قال هذا الشعر ؟ قالت : الأحوص ، يمدح به أمير المؤمنين ، وكلمته فيه ، فأمر به أن يقدم من دهلك ، وأمر له بمال وكسوة .

وروى أن عمر لما ولى الخلافة أدنى زيد بن أسلم وجفا الأحوص ، فقال له الأحوص :

ألست أبا حفص (هديت) مخبرى
أفى الحق أن أقصى ويدنى ابن أسلما ؟
ألا صلة الأرحام أدنى إلى التقى
وأظهر فى أكفائه لو تكرما
وكنا ذوى قربى لديك فأصبحت
قرابتنا ثدياً أجد مصرما
وكنت وما أملت فيك كبارق
لوى قطره من بعد ما كان غيما
وقد كنت أرجى الناس عندى مودة
ليالى كان الظن غيباً مرجما
أعدك حرزاً إن خشيت ظلامة
ومالا ثرياً حين أحمل مغرما
تدارك بعتبى عاتباً ذا قرابة
طوى الغيظ لم يفتح بسخط له فما

وأكثر من ذلك ما يروى من أن عمر هو الذى نفاه إلى دهلك .
ذكروا أنه لما ولى الخلافة كتب إلى عامله على المدينة : قد عرفت الأحوص بالخبث والشر فإذا أتاك كتابى هذا ، فاشدده واحمله إلى ، فحمله إليه فأمر بنفيه إلى دهلك فنفى إليها فلم يزل بها . . . إلى آخر الرواية المتقدمة .

ونحن بعد أن عرضنا للقارئ هذه الروايات المختلفة ، نرجح أن يكون الأحوص قد نفى قبل استخلاف عمر وأن عمر أبى أن يقدمه من منفاه ، أو أن يكون هو الذى نفاه ، لأن ذلك هو الأشبه بعمر ، والملائم لنهجه وخلقه ، وقد رأيت فيما قدمنا أنه إبان ولايته على المدينة نفى عمر بن أبى ربيعة إلى دهلك ، للسبب الذى من أجله نفى الأحوص إليها ، وهو الجنوح إلى هجر القول والإسفاف فى الغزل .

ونعود الآن إلى بقية أخبار الشعراء مع عمر فنقول :

ذكروا أنه لما مات سليمان بن عبد الملك وولى عمر الخلافة ، وفد إليه عويف القوافى ، وقال شعرا رثى فيه سليمان ومدح عمر ، فلما دخل عليه أنشده إياه ، وفى مدحه يقول :

قد ابتلى الله بخير خلقه ألقى إلى خير قريش وسقه
يا عمر الخير الملقى وفقه سميت بالفاروق فافرق فرقه
وارزق عيال المسلمين رزقه واقصد إلى الجود ولا توقه

بحرك عذب الماء ما أعقه ربك ، فالمحروم من لم يسقه

فقال له عمر : لسنا من الشعر فى شيء ، ومالك فى بيت المال حق ، فألح عويف يسأله ، فقال : يا مزاحم انظر فيما بقى من أرزاقنا فشاطره إياه ، ولنصبر على الضيق إلى وقت العطاء ، فقال له عبد الرحمن بن سليمان بن عبد الملك : بل توفر أمير المؤمنين ، وعلىّ رضا الرجل ، فقال ، ما أولاك بذلك ، فأخذ بيده وانصرف به إلى منزله ، وأعطاه حتى رضى .

وحضر عمر جنازة فلما انصرف اعترضه عويف القوافى على بعير له فصاح به :

أجبنى أبا حفص لقيت محمداً على حوضه مستبشراً ورآكا

فقال له عمر : لبيك ، ووقف ووقف الناس معه ثم قال له : فمه ؟ فقال :

فأنت امرؤ كلتا يديك مفيدة شمالك خير من يمين سواكا

قال : ثم مه ؟ فقال :

بلغت مدى المجرين قبلك إذ جروا
ولم يبلغ المجرون بعد مداكا
فجداك لا جدين أكرم منهما
هناك تناهى المجد ثم هناكا

فقال له عمر : ألا ، أراك شاعرا ، مالك عندى من حق . قال : لا ، ولكنى سائل وابن سبيل وذو سهمة ، فالتفت عمر إلى قهرمانه فقال : أعطه فضل نفقتى .

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك كان محسناً إلى أعشى بنى بنى تغلب ، فلما ولى عمر الخلافة وفد إليه ومدحه فلم يعطه شيئاً وقال : ما أرى للشعراء فى بيت المال حقاً ، ولو كان لهم فيه حق لما كان لك لأنك امرؤ نصرانى ، فانصرف الأعشى وهو يقول :

لعمرى لقد عاش الوليد حياته إمام هدى لا مستزاد ولا نزر
كأن بنى مروان بعد وفاته جلاميد لا تندى وإن بلها القطر

وقال أبو عمرو بن العلاء : أول ما حرك من القطامى ورفع من ذكره أنه قدم فى خلافة الوليد بن عبد الملك دمشق ليمدحه ، فقيل له : إنه بخيل لا يعطى الشعراء ، وقيل بل قدمها فى خلافة عمر بن عبد العزيز فقيل له : إن الشعر لا ينفق عند هذا ، ولا يعطى شيئاً ، وهذا عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فامدحه ، فمدحه بقصيدته التى مطلعها :

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطول

فقال له : كم أملت من أمير المؤمنين ؟ قال : أملت أن يعطينى ثلاثين ناقة ، فقال : قد أمرت لك بخمسين ناقة موقرة براً وتمراً وثياباً ثم أمر بدفع ذلك إليه .

أخـــلاقه

كان عمر بن عبد العزيز كريم الشمائل ، حميد السجايا ، رفيع الخلق فاضله ، ولا نغالى إذا قلنا إنه يعد فى عصره المثل الأعلى للرجل الكامل ، إذ اجتمع له من مكارم الأخلاق وشريف الآداب ما لم يعرف لأحد من معاصريه ، ولا غرو فقد كان يجرى فى ذلك على عرق ، ويحتذى مثال جده العبقرى العظيم عمر الفاروق رضى الله عنه ، وها نحن أولاء نورد لك طرفاً من أخباره تتبين منه فى جلاء أنه بلغ الذروة من شم الشيم ، وعالى الهمم ، فنقول :

* * *

كان عمر لا ينكث وعده ، ولا ينقض عهده ، يعتقد الحق فيجاهر به ولا يتهيب فيه غضبة السلطان ونقمته ، فقد أراده الوليد بن عبد الملك إبان خلافته على أن يبايع لابنه عبد العزيز ويخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنا بايعنا لكما فى عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك !

ودخل عمر على سليمان بن عبد الملك فى خلافته ، وعنده أيوب

ابنه وهو يومئذ ولى عهده ، قد عقد له من بعده ، فجاء إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن فى العقار شيئاً ، فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله ، وأين كتاب الله ! فقال سليمان : يا غلام اذهب فأتنى بسجل عبد الملك بن مروان الذى كتب فى ذلك . فقال له عمر : لكأنك أرسلت إلى المصحف ! قال أيوب بن سليمان : والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين فلا يشعر حتى يفارقه رأسه ، فقال له عمر : إذا أفضى الأمر إليك وإلى أمثالك كان ما يدخل على الإسلام أشد مما يخشى عليكم من هذا القول ، فقال سليمان لابنه أيوب : مه ، لأبى حفص تقول هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حلمنا عنـــه .

وكان عمر ينهى سليمان بن عبد الملك عن قتل الحرورية ويقول : ضمنهم الحبوس حتى يحدثوا توبة ، فأتى سليمان بحرورى مستقتل ، فقال سليمان : على بعمر بن عبد العزيز ، فلما أتى عمر عاود سليمان الحرورى فقال : ماذا تقول ؟ قال : ماذا أقول يا فاسق يابن الفاسق ! فقال سليمان لعمر : ما ترى يا أبا حفص؟ فسكت ، فقال : أقسمت عليك لتخبرنى ماذا ترى عايه ؟ فقال : أرى أن تشتمه كما شتمك ، وتشتم أباه كما شتم أباك ،

فقال سليمان ، ليس إلا ؟ قال : ليس إلا ، فلم يرجع سليمان إلى قوله ، وأمر بالحروري فضرب عنقه .

فأنت ترى أن عمر قد أخذ في حكمه بمبدأ المساواة المطلقة ، ولم يفرق في موقف الخصومة بين الخليفة الأكبر — وهو ابن عمه وأمس الناس رحماً به — وبين الحروري البادئ بجرمه ، المقذع في شتمه ، ولعلك تعيب على عمر أنه سكت وأحجم عن الإدلاء برأيه حين سأله سليمان رأيه ، فلما عزم عليه أبدى به ، وجوابنا عن ذلك أن إحجامه لم يكن عن جبن ولا خشية ، وإنما تحرج من الإجابة لما يستيقنه من رأى سليمان في الحرورية وهو القتل لا سواه — يدلك على ذلك صدر هذا الخبر وهو أن عمر كان ينهاه عن قتلهم — فرأى أنه مهما يشر عليه برأى في أمر ذلك الحروري فلن يستمع له ولن يعدو ما يكنه بين جوانحه له ولأمثاله من القتل والبوار ، فآثر الصمت ، حتى استحلفه فحكم بما يراه حقاً وعدلا ، وقد تحقق ما كان عمر يتوقعه من سليمان إذ رفض حكمه ولم يصخ له ، بل رده مستقلا إياه ، مستنكراً له ، بقوله « ليس إلا ؟ » ثم نفذ ما كان ينتويه فضرب عنق خصمه .

هذه نبذة يسيرة من أخلاقه قبل أن يلي الخلافة ، وكذلك كان بعد أن وليها ، فقد تم على ما ألفه من الأخلاق النبيلة

والشمائل الغراء ، وكان أبرز ما فيه رعايته الحق وذوده عنه ، وإقراره العدل بين رعيته ، ورفعه المظالم عن كواهلهم ، وقد قدمنا لك فصلا مطولا فى هذا الصدد ، وفيه ترى كيف انتصف بنفسه من نفسه ومن زوجه ومن أهل بيته ! وقد بكى يوماً فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تلومنى أن أبكى ، ولو أن سخلة هلكت على شاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة ؟ وقد رووا كثيراً من أخباره المنبئة بمبالغته فى التورع والتحرج من أن ينال شيئاً من غير حله ، من ذلك أنه حمل إليه سلتان من الرطب ، فقال : علام جىء بهما ؟ قيل : على دواب البريد ، قال : فما جعلنى الله أحق بدواب البريد من المسلمين ، أخرجوهما فبيعوهما واجعلوا ثمنهما فى علف دواب البريد ، فغمز ابن أخيه الرسول وقال له : اذهب فإذا قامتا على ثمن فخذهما لى ، فأخرجتا إلى السوق فبلغتا أربعة عشر درهماً ، فجاء بهما إلى ابن أخيه ، فأعطاه ثمنهما ، وقال : اذهب بهذه الواحدة إلى أمير المؤمنين ، وحبس لنفسه الأخرى ، فأتى عمر بها فقال : ما هذا ؟ فأخبره الخبر فقال : الآن طاب لى أكله ، وألقى ثمن السلتين فى بيت المال.

وجاءه تفاح من الفىء ، فجعل يقسمه بين المسلمين ، فجاء ابن له صغير فتناول تفاحة ، فانتزعها من فيه ، فسعى إلى أمه مستعبراً باكياً ، فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحاً ، فلما

رجع عمر وجد ريح التفاح ، فقال : يا فاطمة هل أتيت شيئاً من هذا الفيء ؟ قالت : لا ، وقصت عليه القصة ، فقال : والله لقد انتزعتها من ابني لكأنما انتزعتها من قلبي ، لكن كرهت أن أضيع نفسي من الله عز وجل بتفاحة من فيء المسلمين .

وقال يوماً : أسخنوا لي ماء أغتسل به للجمعة ، فقيل له : ما عندنا حطب نوقده ، وذهبوا بالقمقم إلى مطبخ المسلمين وجاءوا به وهو يفور ، فقال : ألم تخبروني أنه ليس عندكم حطب ؟ لعلكم ذهبتم به إلى مطبخ المسلمين ! قالوا : نعم ، قال : ادعوا لي صاحب المطبخ ، فلما جاءه قال له : قيل لك هذا قمقم أمير المؤمنين فأوقدت تحته ، قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أوقدت تحته عوداً واحداً وإن هو إلا جمر لو تركته لخمد حتى يصير رمادا ، قال : بكم أخذت الحطب ؟ قال : بكذا ، قال : أدوا إليه ثمنه .

ووفد عليه بريد من بعض الآفاق فانتهى إلى بابه ليلا ، واستأذن عليه فأذن له ، ودعا بشمعة غليظة فأوقدت ، وجعل يسأله فيحفى السؤال عن حال أهل البلد ومن به من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سيرة العامل ، وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار ، وأبناء السبيل والفقراء ، وهل أعطى كل ذي حق حقه ، وهل له شاك ؟ فأنبأه عن جميع ما سأل ،

حتى إذا فرغ عمر من مسألته قال له : يا أمير المؤمنين ، كيف حالك فى نفسك وبدنك وكيف عيالك ؟ فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال : يا غلام علىّ بسراج ثم قال له : سل عما أحببت ، فسأله فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته ، فعجب البريد لإطفائه الشمعة وكلمه فى ذلك فقال : يا عبدالله ، إن الشمعة التى رأيتنى أطفأتها من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم ، فكانت تلك الشمعة تقد بين يدى فيما يصلحهم وهى لهم ، فلما صرت لشأنى وأمر عيالى ونفسى أطفأت نار المسلمين .

وكان لا يحابى فى الحق قريباً لقرابته ، ولا عظيماً لعظمته ، بل يحق الحق للحق ، ويسوى فى عدله بين الجميع ، وقد خاصم مسلمة بن عبد الملك عنده أهل دير إسحق ، فقال له عمر — وهو ابن عمه وصهره — لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدى ، ولكن وكل بخصومتك من شئت ، وإلا فجاث القوم بين يدى ، فوكل مولى له بخصومته ، فقضى عليه .

ومما يدل على تواضعه ما رواه رجاء بن حيوة قال : سمرت ليلة عنده فاعتل السراج ، فقمت لأصلحه ، فأقسم على لأقعدن ، وقام هو فأصلحه ، فقلت له : تقوم أنت يا أمير المؤمنين ! قال : وما ضرنى ؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ،

ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ولؤم بالرجل أن يستخدم ضيفه .

وكان يتقدم إلى الحرس إذا خرج عليهم ألا يقوموا له ويقول لهم : لا تبتدئونى بالسلام ، إنما السلام علينا لكم .

وقال يوماً لرجل : من سيد قومك ؟ قال أنا ، قال : لو أنك كذلك لم تقله .

وقال لجلسائه : من أراد أن يصحبنى فليصحبنى بخمس : يدلنى من العدل إلى ما لا أهتدى إليه ، ويكون لى على الخير عوناً ، ويبلغنى حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندى أحداً ، ويؤدى الأمانة التى حملها منى ومن الناس ، فإذا كان كذلك فحيهلا به وإلا فهو خرج من صحبتى والدخول على .

وقد قدمنا لك أنه كان مترفاً قبل أن يلى الخلافة فلما وليها خرج من جميع ما كان فيه من النعيم فى الملبس والمأكل والمتاع ، وجعل شعاره الزهد فى الدنيا والإعراض عن متعها الزائلة ، قال مالك بن دينار : « الناس يقولون مالك بن دينار زاهد ، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أتته الدنيا فتركها » ، وقد فاضت خطبه وكتبه بالوعظ والتزهيد فى الدنيا والاستعداد للحساب يوم المآب .

وقال له بعض إخوته : يا أمير المؤمنين لو ركبت فتروحت !

قال : كيف لى بعمل ذلك اليوم ؟ قال : يكون فى اليوم الذى يليه ، قال عمر : لقد فدحنى عمل يوم واحد ، فكيف إذا اجتمع على عمل يومين ؟

وكان يقول لأصحابه : « إياكم والمزاح ، فإنه يورث الضغينة وينبت الغل » .

أمره بتدوين الحديث

كان الناس منذ بدء الإسلام يعتمدون فى الحديث الشريف على الحفظ والاستظهار ، فلما كثرت الغزوات واتسعت الفتوح ومات من حملة الحديث من مات ، وتفرق باقيهم فى البلاد ، وكان عند كل منهم شيء من الحديث ، وقد ينفرد بعضهم منه بما لم يسمعه سواه ، وقل الضبط وكاد يلتبس الباطل بالحق ، مست الحاجة إلى تدوينه .

وكان أول من أمر بتدوين الحديث عمر بن عبد العزيز إبان خلافته ، إذ رأى أن فى تدوينه ضبطاً له وإبقاء عليه .

جاء فى فتح البارى فى باب كتابة العلم : « وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهرى على رأس المائة ، بأمر عمر بن عبد العزيز ، ثم كثر التدوين والتصنيف ، وحصل بذلك خير كثير » .

وجاء فى متن البخارى على هامش الفتح فى باب كيف يقبض العلم : « وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم — وكان عامله على المدينة كما قدمنا — : « انظر ما كان من حديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء » .

قال فى الفتح : وقد رويت هذه القصة بلفظ : « كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه » .

وفاته

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، ولا بد من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلىّ أو إلى نظرائى أهل من بيتك ، لكفيتك مئونتهم إن شاء الله ، فقال عمر : أجلسونى ، فأجلسوه ، فقال : الحمد لله ، أبالله تخوفنى يا مسلمة ! أما ما ذكرت من أنى فطمت أفواه ولدى عن هذا المال وتركتهم عالة ، فإنى لم أمنعهم حقاً هو لهم ولم أكن لأعطيهم حقاً هو لغيرهم ، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتى ، فإن وصيي ووليي فيهم الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله فسيجعل الله له من أمره يسرا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غيّر وفجر فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ، ادعوا لى بنى — وهم يومئذ بضعة عشر ذكرا — فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه ، حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، ثم قال : بنفسي

فتية تركتهم ولا مال لهم ! يا بنى إنى قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بنى إنى ميلت رأيي بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار ، وبين أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار ، قوموا يا بنى عصمكم الله ورزقكم . قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

وتوفى رحمه الله فى رجب سنة ١٠١ هـ وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر ، ومات وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر .

مصادر الترجمة

تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر بن جرير الطبرى   الجزء الثالث ــ الثامن

تاريخ الكامل لعز الدين بن الأثير   الجزء الخامس

مروج الذهب للمسعودى   الجزء الثانى

الإمامة والسياسة لابن قتيبة   الجزء الثانى

البداية والنهاية لابن كثير   الجزء التاسع

الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى   الجزء الأول ــ الثانى ــ الرابع ــ السابع ــ الثامن العاشر ــ السابع عشر ــ الثامن عشر ــ التاسع عشر ــ العشرون

سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى

سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم

شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد   المجلد الثالث ــ الرابع

خزانة الأدب للبغدادى   الجزء الثانى

العقد الفريد لابن عبد ربه	الجزء الأول ـ الثانى ـ الثالث
البيان والتبيين للجاحظ	الجزء الثانى ـ الثالث
صبح الأعشى للقلقشندى	الجزء التاسع
معجم البلدان لياقوت الحموى	الجزء السادس
فتوح البلدان للبلاذرى	
العمدة لابن رشيق القيروانى	الجزء الأول
وفيات الأعيان لابن خلكان	الجزء الأول
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى	الجزء الأول
الكامل للمبرد	الجزء الأول
سرح العيون لابن نباتة	
الشعر والشعراء لابن قتيبة	
الفخرى لابن طباطبا	
صحيح الإمام البخارى	الجزء الأول
فتح البارى لابن حجر	الجزء الأول
ديوان جرير	
الحسن البصرى لابن الجوزى	

فهرس

مطبوعات مصرية

المسند (جزء رابع) للامام أحمد بن حنبل

شرح الأستاذ أحمد محمد شاكر

الكتاب الذى جعله مؤلفه إماماً للناس يرجعون إليه فى تعرف السنّة، وهو كالأصل لكتب الحديث . ٨٠ قرشاً

البندقية

تأليف المؤرخ الكبير شارل ديل

نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذان أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر وقد صدر بمقدمة لحضرة صاحب العزة محمد شفيق غربال بك . وليس الكتاب تاريخاً ، وليس قصة ، وليس أدباً ، وليس فناً ، وإنما هو جماع ذلك كله .
٦٠ قرشاً

نظرية الإدراك الحسى عند ابن سينا

تأليف الأستاذ محمد عثمان نجاتى

بحث يجلو آراء ابن سينا ويربط بينها وبين آراء المفكرين الذين تقدموه والذين أتوا بعده ، كما يربطها بعلم النفس الحديث . ٣٠ قرشاً

مطبوعات حديثة

ديودور الصقلى فى مصر

نقله عن اليونانية الأستاذ وهيب كامل

أدق رواية أدبية ألفت منذ ٢٠٠٠ سنة عن مصر وآثارها وتقاليدها . ٢٥ قرشاً

صوت العالم

للأستاذ ميخائيل نعيمه

مجموعة مقالات نفيسة لأديب لبنان الكبير يدوى فيها صوت الإنسانية تتجاذبها المادة والروح . ٢٥ قرشاً

من الأدب المقارن

للأستاذ نجيب العقيقى

دراسة رصينة تستقصى منابع الأدب وتشتمل على مقارنة الغزل العربى والوصف والمدح ومذاهب القول بما هو من نوعها فى أدب الفرنجة ٢٥ قرشاً

طيف الوليد

للأستاذ عبد السلام رستم

دراسة دقيقة لحياة البحترى وسيرته وشخصيته وشعره مع تناول تاريخ الذين اتصل بهم وحياة اللهو التى سادت عصره ٢٠ قرشاً

مطبوعات حديثة

رتشرد الثانى لشكسبير ترجمة الأستاذ محمد عوض إبراهيم بك

درة أخرى من درر شكسبير تصور النضال بين رتشرد وخلفه هنرى الرابع وتوازن بين سلوكيهما ، وتصور إرهاق الإشراف وظلم الرعية فى عصره . ١٥ قرشاً

ديوان الشروق للأستاذ حسن كامل الصيرفى

مثال صادق للشعر الحديث فى أخيلته وفنونه وأساليبه ، وفى تصويره خلجات النفس ومشاعرها من ألم وأمل وأثر الجمال فيها . ٢٥ قرشاً

شاعر الطيارة فوزى المعلوف للأستاذ « البدوى الملثم »

تصوير دقيق لبيئة هذا النجم الذى ما كاد يلمع فى سماء الشعر العربى الحديث حتى أفل ، ودراسة لسيرته وشعره ونبوغه ، محلاة بقصيدته « شاعر فى طيارة » التى اشتهر بها . ٢٥ قرشاً

الدفاع عن الوطن للأستاذ اليوزباشى السيد فرج

يهدى شباب الجيل إلى واجبهم نحو وطنهم ، ويطلعهم على المعارك الكبرى التى حصلت فى مصر ، ويعرفهم طرق الاستعداد للحرب مدنياً وعسكرياً . ٢٠ قرشاً

إعادات طبع ظهرت حديثاً

ص		
٣٠	فى الأدب الجاهلى	للدكتور طه حسين بك
٢٥	حديث الشعر والنثر	للدكتور طه حسين بك
٢٠	عبقرية الإمام	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢٥	العرب فى أسبانيا	للأستاذ على الجارم بك
٢٥	الملك الضليل	للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك
٢٠	رباعيات عمر الخيام	للأستاذ وديع البستانى

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



أولادنا

١ عمرون شا
٢ مملكة السحر
٣ كريم الدين البغدادي
٤ آلة الزمان

قصص حية رشيقة تغذي روح الطالب
وتجلو له في جميع مراحل النمو
عناصر المتعة والثقافة وسمو النفس

المجموعة التي تحبب الكتاب الصالح إلى الطالب
فيقبل عليه صغيرًا ويتعلق به كبيرًا
ويكون له نعم الزاد في سفرة الحياة

تصدرها
دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

دار المعارف بمصر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

هدفها الأول نشر الثقافة عن طريق الرقى بالكتاب العربى . وقد نالت مطبوعاتها رواجا منقطع النظير فى مصر وفى جميع البلاد العربية لما امتازت به من حسن الاختيار وأناقة الإخراج واعتدال الثمن .

المحل الرئيسى بالقاهرة :
٧٠ شارع الفجالة

فرع الإسكندرية :
٢ ميدان محمد

اقرأ

- عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.
- السلسلة الشهرية الوحيدة التى تعمل منذ أكثر من خمس سنوات على جعل الثقافة فى متناول الجميع.
- نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة فى كل منزل يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء.
- تصدرها دار المعارف بمصر فى طباعة أنيقة بمعاونة حضرات الدكتور طه حسين بك والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ فؤاد صروف

ثمن النسخة ٥ قروش

٦٠ ملا فى فلسطين وشرق الأردن ٦٠ غرشاً فى لبنان
٦٠ فلساً فى العراق ٦٠ غرشاً فى سوريا